

the Story of Blood

قصة الدم

(مدخل لتفكيك أسطورة العنف الديني)

بقلم: د. شادى محمد النعمان

مركز النعمان للبحوث

قصة الدم

(مدخل لتفكيك أسطورة العنف الديني

من مراجع غربية)

بقلم

د. شادي محمد سالم النعمان

مركز النعمان للبحوث

﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ القرآن الكريم

•لقاء:

في مدينة ليون الفرنسية القديمة، جمعني لقاء بمجموعة من الشباب الغربي أكثرهم من فرنسا، في ليلة باردة، نتناول (الكرواسون) الساخن، ونتجاذب أطراف الحديث كعادتنا، مع شيء من سوانح الذكريات، ودارت رحى الكلمات لنأتي على شيء من أحداث العالم من حولنا.

فسألني أحدهم مستفهمًا عن الحروب والدماء التي تسال في العالم الإسلامي، وهل أتفق مع الطرح القائل بالترابط بين الدين والدم.

في العالم الغربي يُعد هذا الطرح (الربط بين الدين الإلهي والدم) أحد المرتكزات الرئيسة في نقد الدين، تسمع هذا في نشرات الأخبار، وفي الحافلة، ومن سائق التاكس، وتقرؤه في الكتب، وتراه في الإعلام.

من النادر أن تقرأ كتابا لأحد أرباب الإلحاد الجديد إلا وتجد هذه الركيزة حاضرة في خطابه، خذ مثلا ما كتبه سام هاريس (sam haris) في كتابه ((نهاية الإيمان)) (The End of faith) ، وكتاب ريتشارد داوكينز (Richard dowkins) (the god delusion) أو ((وهم الإله)).

يرتكز هذا الطرح باختصار على مقدمتين ونتيجة: (حيثما وُجدت الدماء يوجد الدين الإلهي، وبالتالي فالدين هو سبب الدماء الأوحد أو الرئيس، ينتج: أن الطريق الوحيد للعيش في سلام وأمان هو إلغاء الدين الإلهي من الحياة).

في هذه الأطروحة المختصرة أحاول أن أقدم نقدًا مختصرا لهذه الركيزة من مرتكزات الخطاب الإلحادي، أرجو أن تكون مدخلا جيدا للباحث في نقد أصول هذا الخطاب.

وقد رأيت أن أسلك منهجًا خاصًّا في هذه الأطروحة وغيرها مما يدور في نفس الباب وهو نقد العقل الإلحادي الغربي من داخل العقل الغربي نفسه، فالعقل الغربي منقسم على نفسه، تتجاذبه رؤى وأفكار متعاكسة، فقط يسلط الإعلام الضوء على الخطاب الذي يراه أنسب لأجنداته، وينبغي على المتخصص إبراز الوجه الآخر للعقل الغربي الأكثر اتزانا وتعقلا وانضباطا، ليُعلم أننا لا نقول ما نقول لمحض تحيِّز بل ما نقول هو ما يمليه العقل نفسه شرقيًّا كان أو غربيًّا، ولهذا سيلاحظ القاريء الكريم أن الاعتماد الأكبر في هذه الأطروحة سيكون على مراجع غربية ناقشت هذا الطرح ورفضته ورأت فيه سطحية واختزالا أو تضمنت على الأقل مادة تدل على خطأ هذا الطرح وإن لم تتقصَّد رده.

وقد حرصت على التنصيص على بعض العناوين المهمة لمراجع غربية في الموضوع من المهم للمتخصص مراجعتها والاستفادة منها.

*الحرب

☐ • أصل الكلمة:

كلمة حرب في اللغة العربية يدور جذرها (ح ر ب) في معاني الويل والهلاك والغضب، والعلاقة واضحة بين ساحات القتال وبين مثل هذه الصفات.

وفي الإنجليزية كلمة (war) يعود أصلها إلى كلمة ألمانية قديمة werran وتستخدم أيضا في الإنجليزية القديمة وتكتب were ويدور معناها حول التشويش والارتباك، والعلاقة واضحة أيضا بين حالة الحرب وبين مثل هذه المعاني.

❁❁❁

معنى كلمة (حضارة بشرية):

يريد العلماء بالحضارة (civilization) انتظام مجموعة من الناس غالبا ما يجمعهم العنصر المكاني أو العرقي ضمن قوانين سياسية تنظم حياتهم وتدير مواردهم الاقتصادية وتحفظ كيانهم ، وغالبا ما ينتج عن هذا الاستقرار تطور ثقافي في نواحي اللغة والكتابة والفنون وغير ذلك.

كيف تكوَّنت الحضارات البشرية[1] :

اعتمد الإنسان القديم على الصيد كمورد رئيس لتأمين غذائه وحياته ، كما اعتنى أثناء خروجه للصيد بجمع ما يحتاجه من نبات للطعام ، وكانت حياته تتسم بالتفرد وعدم الاستقرار فهو دائم التنقل بحثا عن الصيد وغيره من أسباب الحياة ، حتى وعي الطريقة التي ينبت بها النبات بأنواعه من أشجار ونخيل فبدأ بجمع البذور لأنواع النبات

---

(1) من المراجع الرئيسية للحديث عن نشأة الحضارات البشرية في الغرب كتاب the ascent of man by bronowski وكتاب the origins of civilization by Charles redman وطبيعي أننا كمسلمين نتحفظ على الفصول الأولى في كتاب bronowski حول نشأة الخليقة.

المختلفة وقام بجمع الحبوب وتخزينها ودخل في طور الزراعة التي ستوفر له متطلباته من الطعام النباتي والتي ستتغذى عليها الحيوانات المأكولة أيضا فتتناسل وتتكاثر.

ولما كانت الزراعة -وهي مصدر حياته الرئيسي- تحتاج إلى الماء حرص على الاستقرار قريبا من الأنهار والتي توفر مصدرا لا ينضب لمياه الزراعة والشرب، وسيتوافد صيادو الأمس مزارعو اليوم إلى أقرب الأنهار من حولهم فيستقروا ويتناسلوا ويتكاثروا.

ستكثر المحاصيل الزراعية والموارد الحيوانية فسيحتاج أهل المنطقة لشخص أو مجموعة أشخاص لديها مهارات الترتيب والتنظيم تقوم بإدارة مواردهم ومناطقهم.

وسيكثر الخلاف بينهم حول كثير من هذه الموارد فسيحتاجون لمن يقضي بينهم.

وسيحتاجون إلى تأمين أنفسهم من أطماع التجمُّعات البشرية الأخرى فيقومون بتشييد المدن المحصنة ويجهزون الجيوش المدربة للدفاع عن مواردهم ومصالحهم.

وهكذا وجدت المدن وظهرت الحضارات البشرية التي كانت قديما زراعية بالدرجة الأولى.

الديانات السائدة في هذه البيئات:

نعتقد نحن المسلمين أن الله خلق الناس وفطرهم على فطرة التوحيد حتى اجتالتهم الشياطين فبعث إليهم الرسل مبشرين ومنذرين.

وأقدم الحضارات البشرية التي توصل المؤرخون لوجودها عبر الآثار والنقوش وغيرها من وثائق الوجود يعود وجودها إلى مرحلة ما بعد طوفان نوح عليه السلام.

يرى المؤرخون أن أهل هذه الحضارات والتجمعات البشرية عندما بدؤوا بتأمل الدنيا من حولهم وجدوا أن الصفة الرئيسة التي يتصف بها الكون هي النظام البديع لكل شيء، واعتقدوا أن النظام الذي يميز هذه المخلوقات لا يمكن أن يصدر إلا من قدرة خارقة هي التي تتحكم فيه، فتخيلوا إلها للشمس وإلها للقمر وإلها للسماء وإلها لكل شيء، وتخيلوا هذه الآلهة تتحكم في الأفلاك.

ومن جهة أخرى فقد لاحظوا أن هذه الأفلاك هي التي تمدهم بالحياة فالسماء تمدهم بالماء والشمس تمدهم بالنور، والأرض تمدهم بالزرع

فجعلوا من كل من هذه الأفلاك آلهة، الأرض مثلا كانت هي الإلهة الأم (mother goddes) بالنسبة لهم، هي (عشتار) في بلاد ما بين النهرين، وهي (ديميتر) عند الإغريق، و(إيزيس) عند المصريين القدماء، و(عنات) في سوريا.

كما صح في تفاسير الصحابة للقرآن الكريم أن قوم نوح كانوا يعظمون الصالحين ويتوجهون إليهم بأصناف العبادة والنذور ويبدو أنهم تصوروا صلاحهم نابعا من قوى روحانية تقف خلفهم ميزتهم عن سائر الناس كتلك التي تحرك الأفلاك، فلا يبعد أن تكون مثل هذه العقائد تسللت أيضا في مثل هذه البيئات.

ويبدو أن أبناء هذه الحضارات القديمة لم يتوقفوا إلى هذا الحد، بل تأملوا إلى جانب المخلوقات العظيمة كالأفلاك في المشاعر الإنسانية الوجدانية وأثرها العميق في حياتهم فتخيلوا أيضا آلهة تقف,وراء هذه المشاعر المخلصة، فتخيلوا آلهة للحب وآلهة للجمال.

هذا إلى جانب بعض الثقافات السائدة في بعض البيئات والتي كانت تقضي بأن كل إنسان وكل شيء في هذه الحياة ما هو إلا نسخة طبق الأصل وظل

باهت لحقيقةٍ أكثر قوة وديمومة[2] ، وجعل بعضهم هذه الحقيقة الأكثر قوة وديمومة متصلة ببعضها في عالم روحاني مواز ونابعة من القوى الخارقة التي أنتجت هذا الكون، فتوجهوا بالعبادة إلى المخلوقات العظيمة كالأفلاك في محاولة لإيصال رغباتهم وحاجاتهم إلى هذه الأرواح أو ذلكم العالم الروحاني، وقدسوا الأبطال التاريخيين حيث اعتقدوا أنهم خرجوا عن الطور الإنساني وتجلَّت فيهم تلك الحقيقة الأكثر ديمومة وقوة أو ما يسمونه بعودة نفوسهم السماوية (alter-ego)[3]، وقدسوا أبطال الحب والجمال والوفاء للسبب نفسه[4].

ثم نسجوا الأساطير حول هذه الآلهة فهي في أساطيرهم تتزاوج وتتوالد وتتحارب وتتصالح فيما بينها أيضا!

ومن بين نهرين من أنهار هذا العالم الفسيح سنبدأ قصتنا ونمضي في رحلتنا.

❁ ❁ ❁

---

(2) نلاحظ حضور هذه المعتقدات في فلسفة أفلاطون المثالية، وفي عقائد الهندوس القديمة، وعقائد الفراعنة وتسللت مع غيرها من العقائد إلى الداخل الإسلامي عبر مقالة وحدة الوجود.

(3) من المراجع الجيدة للتوسع في هذه الفكرة كتاب the myth of eternal return: Princeton university press, pp1-34

(4) تكلمنا عن ذلك كله في كتابنا عن تاريخ ظهور الشرك في العالم وبواعثه.

التاريخ القديم

بلاد الرافدين (Mesopotamia)[٥] :

سنأخذ آلة الزمن ، ونغمض أعيننا ، ونعود معها آلاف السنين إلى الوراء ، ونطلب منها أن تضعنا في مكان ما بين نهري دجلة والفرات، (جزء من العراق اليوم)، في (سومر) أو (آشور) أو ربما (آكد) أو في غيرها من الممالك و المراكز الحضارية الكبرى في تلك المنطقة، وهناك سنفتح أعيننا.

يرى أكثر المؤرخين أن حضارة بلاد ما بين النهرين هذه (mesopotamia) هي أقدم الحضارات الإنسانية،حيث يرجع تاريخها إلى أكثر من 6000 آلاف سنة ق.م.

ويرون أيضا -وهو ما تؤيده كثير من نصوص الكتاب المقدس، ولا يدفعه القرآن الكريم- أن هذا هو المكان الذي رست فيه سفينة نوح عليه السلام، وهناك استقرت الطليعة الأولى من البشرية التي نَجَت

---

(5) *(War in ancient times), by Joshua mark.*
(*Daily Life in Ancient Mesopotamia)by* Karen Rhea Nemet-Nejat (1998).
(*Gender and Aging in Mesopotamia)by* Rivkah Harris (2000).
(The Story of Us Humans, from Atoms to Today's Civilization) by Robert Dalling (2004).

من الطوفان، وبدأت في التزاوج والتكاثر، ولهذا بدأت التجمعات البشرية هناك، ثم توسعت وانتشرت وهاجرت لتكوِّن سائر شعوب العالم بعد ذلك، والذين ترجع أصولهم بشكل أو بآخر إلى هذه المنطقة.

لكن يبدو من الأجواء حولنا أن الوضع لا علاقة له برسالة الإسلام التي أُرسل بها نوح عليه السلام، فالأوثان منتشرة في كل مكان، والسحر يضرب أطنابه في الأرض كثقافة رئيسة من ثقافات أهل هذه البلاد، وأهل البلاد لا يفتؤون يقدمون القرابين والأدعية والنذور إلى آلهتهم الكثيرة المتفرقة المنتشرة في كل مكان.

فهذا (آنو) إله السماء، وهناك (كي) زوجة الإله، وهي إلهه بدورها، بل وأنجبوا إلها ثالثا هو (إنليل)، وهناك في بابل (مردوخ) إلههم يتبوأ المكانة الرئيسة في عباداتهم، والإله (آشور) عند الآشوريين، و(غولا) عند السومريين إله الشمس والعدالة، أما (نينورتا) فهو إله الحرب، وعدد ما شئت من آلهة لا تنتهي.

إذن فقد نسي الناس رسالة نوح عليه السلام وعادوا لما كانوا فيه من عبادة الأصنام والأوثان..

ولكن ربما يكون هذا مؤشرا إيجابيًّا فمادام أن الدين الإلهي (الإسلام) قد غاب عن المنطقة ، ولم يعُد له وجود على الأرض، فلا شك أننا سننعم بالسلام والراحة والطمأنينة، فالدين السماوي حيثما وُجِد وُجِدت الحروب والدمار.

ولكن ما هذه الجلبة وما هذه الأصوات وما هذه الهتافات..إنهم يحشدون .. أي حشد هذا.. وما هذه الآلات .. أليست هذه الآلات الحربية القديمة.. لماذا تُجمَع وتجهَّز..

إعلان الحرب .. حرب ماذا.. وعلى من..

إنها الحرب المقدسة باسم آنو أو كي أو إنليل أو مردوخ أو من شئت ، لغزو الممالك المجاورة..

من حولنا تسيل الدماء.. وتتطاير الرؤوس.. ويعلو الصراخ..وتلتحم الأجساد..وترتطم الآلات الحربية ببعضها.. ثم يسود السكون.. لتعلن حرب جديدة في وجهة جديدة...

فالآكاديون يعلنون الحرب على السومريين.. ويطردونهم ويستولون على مناطقهم..ويعود السومريون للسيطرة مرة أخرى.. ليأتي العيلاميون بعد ذلك ويستولون على ما تحت السومريين..ولا يستقر لهم ملك حتى يأتي حمورابي مع العموريين من بابل ليطرد الجميع ويقيم مملكته هو..

في (أوروك) من مدن سومر يشتكي أهلها للآلهة من ظلم ملكهم (جلجامش)[6] الذي استعان هو أيضا بالآلهة للانتصار على رعيته الذين لا يعرفون مصلحتهم، وتقع حرب أهلية دموية برعاية الآلهة تعرف بملحمة (جلجامش) والتي دونت أحداثها في أحد أقدم الأعمال الأدبية الغربية على الإطلاق (the epic of gilgamesh) .

الرعاة بدورهم الذين رفضوا حياة الاستقرار والاندماج في هذه الحياة المدنية قاموا بتجهيز الجيوش لغزو المدن والحصول على متطلباتهم الاقتصادية عن طريق الحرب، فالحرب هي أسهل وسيلة للتأمين الاقتصادي.

([6]) كانوا يعتقدون أن جلجامش هذا ثلثه إلهي وثلثاه بشري، وظاهر أن أسطورة التثليث في المسيحية المحرفة تأثرت بمثل هذه العقائد السائدة.

من أشهر تجمعات الرعاة تاريخيا (الآريون) وآريا في لغتهم هو النبيل ، الذين سكنوا سهول القوقاز وتكاثروا ليصيروا أصلا لكثير من الشعوب الهندية والأوروبية بعد ذلك، وتتفرع عن لغتهم لغات شتى.

اعتقد الآريون في الآلهة ديفاس وميثرا وفارونا ومازدا، واعتقدوا أن نظام الكون (rita) لا يقوم إلا بهم، فهم من يجعل الفصول تستمر في الدوران ويحفظ الأفلاك السماوية.

انطلق الآريون بمباركة الآلهة التي وعدتهم بأن ماشية الأرض كلها من حقهم هم وحدهم! ليهاجموا المدن السومرية ويوقعوا فيها نكاية شديدة، وقد تسببوا في دمار أكثر المدن السومرية.

كان لابد من ملك سومري قوي يستطيع مواجهة الغزوات الخارجية ، وقد استطاع (سرجون الآكادي) القيام بهذه المهمة فمع كونه جنديا عاديا إلا أنه استطاع القيام بانقلاب ناجح في مدينة كيش ثم السيطرة على أوروك ثم السيطرة على سومر بأكملها ثم التوسع ناحية الشام غربا وإيران شرقا واتخذ من آكاد عاصمة له، ولهذا يعد أول من شيد إمبراطورية عسكرية في التاريخ، وأول من شيد حكما عابرا للأقاليم.

وفي النقوش التاريخية أن سرجون هذا كان يدعي أن الإله إنليل هو الذي تكفل بنصرة سرجون وتمليكه هذه المساحات الواسعة[7].

ومع حياة الآريين المتعطشة للحروب هذه إلا أنه يبدو أنهم كانوا في لحظات يقظة إنسانية يستشكلون الحرب وعبثيتها ودمارها وما تلحقه بالبشرية حتى إنهم سموا إله الحرب بالإله المذِنِب: (sinner).

بعد انهيار آكاد مع عوامل الزمن قامت ممالك عدة في هذه المنطقة من أهمها مملكة بابل (babylon) والتي كان حمورابي أحد ملوكها وقد توسعت مملكته في زمانه وقد ادعى بدوره أن الآلهة هي التي قامت بتعيينه ليحكم الأرض ويقيم العدل فيها ويهزم الشر وألا يضطهد الضعفاء.

أما الشرائع[8] التي سيحكم بها فقد سلمها له إله الشمس مردوخ، كما يظهر في النقش الشهير.

ثم يأتي بعدها الحيثيون ليستولوا على مملكته ويخربوا عاصمته ويرحلوا وكأن شيئا ما كان.

---

(7) Mesopotamia the invevtion of the city pp95,100.

(8) تعرف بأنها من أقدم التشريعات القانونية (البشرية) إن لم تكن أقدمها على الإطلاق.

ثم تتقاسم قوى أجنبية على رأسها الكيشيين والحيثيين والميتانيين هذه المنطقة من العالم.

وعلى أنقاض هذه الممالك ستقوم مملكة آشور التي ستحكم المنطقة أيضا وباسم الآلهة كالعادة.

يوجد في المتحف البريطاني لوح يرجع إلى ذلك العصر يظهر أشوراك بعل الثالث وهو يباشر تعذيب الأسرى الممددين عرايا ومقيدين إلى أوتاد بالأرض، ثم سلخ جلودهم وهم أحياء، وقطع ألسنة وآذان بعضهم بالكابلات والخلاعات.

وحين غزا (سنيا شيريب) مدينة بابل عام 689 ق.م. قام بذبح كل سكانها حتى أتخم شوارعها بأكوام كبيرة من الجثث ثم دمر المدينة بأجمعها ولم يترك حجرا على حجر، كان هذا هو العرف السائد في ذلك الوقت عند غزو بلد مجاور.

أما (تيجلات بيلصر الثالث) فابتدع وسيلة جديدة وهي نفي شعوب بأكملها من المناطق التي يريد السيطرة عليها إلى مواطن بعيدة، فنفى في عام واحد 744 ق.م. 65 ألف فرد من موطنهم.

ستتحد مدن آشور فيما بينها بعد فرقة واقتتال وتجتمع على قتال مملكة بابل ومن تحالف معهم من الكلدانيين والعيلاميين والكلدانيين وشعوب أخرى كثيرة أجمعت أمرها على قتال ممكلة آشور، تحرك الآشوريون بقيادة آشور بني بعل وتحركت آلة الحرب الآشورية المدمرة ودمرت أعداءها حتى أشعل ملك بابل النار في نفسه، وقام آشور بني بعل بإخماد تلك المدن بوحشيته المعروفة، حتى محى منطقة عيلام من الخارطة وأفنى شعبها عن بكرة أبيه، وبعد سنوات رتب البابليون صفوفهم من جديد وتحالفوا مع أكثر شعوب تلك المنطقة وهاجموا آشور وقاموا بإفناء الآشوريين والقضاء عليهم قضاء نهائيا إلى غير رجعة.

يتفق المؤرخون على أن الحروب الدموية كانت جزءا لا يتجزأ من ثقافة حضارات ما بين النهرين، وعلى أن الصراع بين الممالك ومراكز القوى المجاورة لم يتوقف، وعلى أن عامة الحضارات التي قامت هناك بدءا من الحضارة السومرية ومرورا بالآكدية أو الآشورية أو البابلية لم تقم إلا على خلفية حروب تاريخية..

ثم توسُّع هذه الممالك خارج حدود النهرين كان يتم عبر حروب وغزوات للمناطق المجاروة..

ومؤخرا اكتشف كثير من علماء الحفريات مجموعات ضخمة من المقابر بين مصر وبلاد ما بين النهرين تبيِّن وقوع حروب بل ومذابح في حقبة ما قديمة من التاريخ، يبدو أن سببها هو توسع إحدى هذه الممالك خارج حدودها.

وعلى جدران كثير من المعابد البابلية القديمة لاحظ علماء التاريخ وجود نقوش توثق سير الأعمال الحربية بين الممالك المختلفة.

إن الوضع هنا وضعٌ دمويٌّ لا يَسُر.. حروب وخراب ودمار.. دماء وقتل .. صراخ وعويل..

لنستقل سريعًا آلة الزمن ونبحث لنا عن مكان آخر ننعم فيه بالسلام والهدوء..

ولكن لابد أن نذهب إلى مكان لا يكون للدين الإلهي فيه وجود، فالدين حيثما وُجِد وُجدت الحروب، أما ما رأيناه في بيئة ما بين النهرين الوثنية التي لا تدين بدين فهذا لاشك أنه صورة شاذة لا تخرم القاعدة، ولا يستقيم أن نعمم ما رأيناه هناك على غيره.

الحضارة المصرية القديمة ancient Egypt [9]:

سنطلب من آلة الزمن هذه المرة أن تضعنا هناك حيث الأمن والسلام والهدوء.. حيث لا دين ولا إسلام.. في مصر القديمة.

هنا وحّد مينا مصر العليا والسفلى سنة 3200 ق.م. تقريبا، لتبدأ الحضارة المصرية القديمة بالظهور..وتؤسس إحدى أشهر الحضارات البشرية في العالم.

هنا حيث الآلهة تتنوع وتنتشر من آمون إلى إيزيس إلى أوزيريس إلى رع إلى حتحور إلى آتون ..إلى ما لا ينتهي من آلهة، فإله للحب والجمال، وإله للسحر، وإله للأمومة، وإله لكل شيء!

فلننعم إذن بالهدوء والسلام وراحة البال مادمنا قد اطمأننا إلى أنه لا وجود للدين السماوي هنا.

إلا أن توحيد قطري مصر نفسه لم ينتج إلا عن حروب دموية متواصلة بين القطرين! وقد حفظت لنا الحفريات والآثار صور لمجموعة من

---

[9] Ancient Egypt by peter clayton. *The Oxford history of ancient Egypt*. Oxford University Press.

الأسرى قطعت رقابهم ووضعت رؤوسهم بين أقدامهم يرجح المتخصصون أن يكون وقع هذا أثناء حرب الوحدة الأهلية في مصر.

لكن لعل هذا حدث في أول الأمر ثم بعد الوحدة اطمأن المصريون القدماء وعمَّ الأمن..

ولكن لحظة ما هذه الأصوات..وما هذه الجلبة .. وما هذه الآلات الحربية مرة أخرى!

الحرب الحرب.. حرب.. حرب ماذا وفي مصر القديمة..حيث الحضارة واللادين..

من حولنا حركة دائمة صاخبة لا تتوقف..جنود المشاة.. العربات المخصصة للحروب تسحق الأعداء تحت عجلاتها.. أمواج بشرية تصطخب.. ما الذي يحدث؟

إن الأسرة الحاكمة في هيراكليوبولس استولت على مصر السفلى ، وأسرة أنتيف استولت على مصر العليا، وبدا الصدام محتوما بين الأسرتين.. ودخلت الحضارة المصرية فيما يعرف بمرحلة الصراع بين الأسر..

قتل ودماء وخراب ودمار..

استطاع منتوحتب الثاني الانتصار على حاكم هيراكليوبولس ، وتوحيد مصر مرة أخرى..وعاد الهدوء والأمن.

ولكن .. ما هذه الجلبة مرة أخرى..لماذا يستعد الجميع للحرب ..ألم تتوحد البلاد ويهدأ الوضع..

نحن الآن في 1720 ق.م ، ينادي المنادي إن الهكسوس قادمون من الجهات الشرقية لمصر... هكسوس.. وما الهكسوس.. وما أتى بهم من آسيا.. أليسوا أقواما لا دين لهم فلماذا يؤمنون بثقافة الدماء إذن..لماذا سيغزون مصر عسكريا..مرة أخرى تتطاير الرؤوس وتسيل الدماء ...

وبعد أن ينتهي حكم الهكسوس في مصر، سيقوم كاموس أخو أحمس بغزو الدول المجاورة وتبدأ حدود الدولة المصرية بالتوسع لتصل إلى الأناضول شرقا وليبيا اليوم غربا وتتوزع الحروب في جهات الدولة المصرية المختلفة.

فلنذهب سريعا إلى حقبة جديدة لعلها تكون أكثر هدوءا..

سنفتح أعيننا الآن عام 1479 ق م لنشهد إحدى أقدم النزاعات المسلحة التي شهدها شهود عيان في التاريخ وهي معركة مجيدو ، بين تحتمس الثالث في مصر وتحالف مصري آخر تحت قيادة ملك قادش ، والاسم العبري لمجيدو هذه هو أرماجيدون ، وهو المكان الذي حسب الرؤية التوراتية سيشهد معركة نهاية العالم أيضا.

معركة آخر الزمان! إذن فلنغادر هذا المكان الخطير على وجه السرعة..

سننتقل إلى مصر القديمة سنة 1350 ق. م . وبمجرد أن ننزل من آلة الزمان سيتلقانا حراس ونوّاب أمنحوتب الرابع، والذي أمر بجعل الآلهة إلها واحدا وهو آتون إله الشمس! وسمى نفسه إخناتون، وأمر الجميع بعبادة آتون وإلا فمصيره التشريد أو القتل.

فلنغادر إذن سريعا لنسلم من حملات القتل هذه لننزل سنة 1258 ق. م . في زمن رمسيس الثاني الذي يسمونه برمسيس العظيم، ولكننا بمجرد نزولنا سنجد أنفسنا في وسط ساحة أحد أشرس معارك التاريخ القديم ، معركة قادش، بين المصريين والحيثيين، وقد حفظت لنا الآثار والنقوش المصرية تأريخا لجوانب من هذه المعارك الدموية وما حدث فيها.

في حادثة أخرى تظهر لوحة مشهورة للملك المصري الشهير نارمر واقفا فوق صفين من أجساد جيش الأعداء مقطوعي الرأس، ويشير النقش المصاحب للصورة إلى عدد 120 ألف أسير، ويظهر باللوحة نقش آخر يظهر فيه الملك نارمر وهو يمسك بإحدى يديه واحدا من الأسرى من شعره بينما يرفع بيده الأخرى هرواة كأنه على وشك تحطيم رأسه.

سيواجه بعد ذلك المصريون الآشوريين سنة 671 ق. م في حروب طاحنة.

ثم سيقوم الفرس بقيادة قمبيز الثاني 525 ق.م. بغزو مصر.

ليسلمها الفرس بعد ذلك دون قتال للإسكندر المقدوني 332 ق.م. ويبدأ عهد البطالمة..

❁❁❁

فارس القديمة:

تكلمنا في أثناء الحديث عن حضارة ما بين النهرين عن الرعاة المحاربين الذين كانوا يلقبون بالآريين الذين سكنوا سهول القوقاز، والذين كانوا يعبدون الآلهة ديفاس وميثرا وفارونا ومازدا.

سيتجه بعض أبناء هذا العرق الآري إلى بلاد إيران وهناك سيتأمل أحدهم (زرادشت) في كل هذه الحروب التي تملأ العالم ويستخلص أن هناك إلها للشر هو وأتباعه هم سبب كل هذه الحروب، وسيرى رؤيا يأتيه فيها الإله مازادا (أهورا مازدا) إله الحكمة المسمى مازدا (أهورا=إله)، يصحح له هذا الرأي ويوكله بمحاربة أتباع إله الشر ولُقِّب بالروح العدائية (angra mainyo) من الرجال والنساء والأطفال لتدميرهم وإحراق الروح العدائية في النار.

وبالمناسبة هذا هو أصل دين المجوس الثنوية الذين يعتقدون بإلهين للعالم وسبب تقديسهم للنار وعبادتهم لها حيث يعتقدون أن فيها تُحرق الروح العدائية أو إله الشر هذا.

قسم زرادشت أهل الأرض إلى قسمين أتباع إله الحكمة وأتباع إله الشر، وقامت على وقع هذا التقسيم عدد كبير من الحروب وأسيلت الكثير من الدماء.

❁ ❁ ❁

الصين القديمة[10] :

ما هذا التاريخ الدموي ..وما تلك الحروب ولمَ كل هذا القتال والنزاع..

إن هذا الشرق القريب بيئة دموية من أقدم العصور .. وُجِد الدين أو لم يوجَد.. يبدو أن أهالي هذا الشرق لا يفتؤون يتقاتلون فيما بينهم ولا يؤمنون إلا بلغة الحروب..

لنترك هذا الشرق الأدنى ونذهب إلى الشرق البعيد هناك في أقصى العالم..

حيث آلهة الصين التي تنتشر في كل مكان.. في أحد أعرق البيئات الوثنية في العالم..

هذا هو الإله يودي إله الجنة ، وهناك دومو إلهة الجنة ! وهذا بانجو إله الأرض والسماء ، وهذه زيوانجمو إلهة الغرب وإلهة الظلام أيضا ، وهذا يونجوانج إله العالم السفلي(١١) □

---

[10] The Ancient Dynasties", University of Maryland.

[11] The nine emperor gods: a study of Chinese spirit medium cults, time books international. (the heritage of non theistic

وعدد ما شئت من آلهة فقد كانت بالمئات في الصين القديمة..وكثير من معابدها وهياكلها موجودة معبودة إلى الآن..

لاشك أن هذه البيئة الوثنية التي لا تعرف ما الدين ستكون بيئة آمنة مطمئنة فالدين أينما وُجِد وُجدت الحروب..

فلتأخذنا آلة الزمن هذه المرة إلى بلاد الصين..

هناك في أقصى الشرق في الصين قامت إحدى أقدم الحضارات العالمية أسرة زو (تشو) (zhou dynasity) في حدود سنة ألف قبل الميلاد ، إلا أن هذه المملكة قامت أيضا على خلفية مجموعة من الحروب الدموية .

كما مرت الصين القديمة بحقبة تعرف تاريخيا بحقبة الممالك المتحاربة (warring states period) ، وهي حقبة عاشت فيها الصين القديمة تاريخا دمويا من الصراع والحروب بين الأسر والممالك بين عامي 475-221 ق م، وكانت ولا تزال هذه الحقبة من أشهر

---

belief in china by jossef adler. Chinese gods an introduction to Chinese folk relegions by jonathan chamberlain.

الحقب الدموية في تاريخ الصين، وبحسب المراجع الغربية قتل فيها **مليون وربع إنسان**[١٢].

وقتل الإمبراطور الصيني qin shin huang الذي عاش ما بين 259-210 ق م. في حروبه لإقامة مملكته قرابة مليون إنسان[(13)].

والمطالع لتاريخ الصين القديم سيلاحظ أنه من التواريخ الدموية التي لا تعرف الحروب توقفا فيه.

❀❀❀

---

[12] A great book of horrible things (8).

[13] Ibid p.(15).

الهند القديمة:

إلى جانب هذه الحضارات يرى المؤرخون أن حضارة الهند القديمة تصطف إلى جانبهم في القدم تاريخيا، وقد قام غاندي ونهرو بتقديم تاريخ الهند القديم على أنه تاريخ سلمي خال من الصراعات الدموية والحروب وكان هذا المعتقد سائدا إلى فترة قريبة، إلا أن كثيرا من الباحثين والمؤرخين الهنود يجادلون في هذا الطرح، بل ويصفونه بالأسطورة والخرافة، ويرجحون دموية تاريخ الهند القديمة كسائر التواريخ القديمة سواء بسواء وقدموا أدلتهم التاريخية والأثرية على ذلك ومن أواخر ما صدر بهذا الصدد عام 2017 كتاب the political violence in ancient india لمؤلفه manmohan singh.

وعندما نحاول التنقيب في تاريخ الهند القديم وفي نصوصهم الأثرية نلاحظ أن القبائل الآرية المذكورة سابقا هي إحدى القبائل التي وصلت إلى الهند (منطقة البنجاب) تحديدا واستوطنت وتكاثرت هناك، وشكلت إحدى أصول الأعراق الهندية هناك، وكان كالعادة تاريخهم حربيا بامتياز يمجدون الملاحم والحروب كما حفظته لنا ال (RIG VEDA) النص الأكثر قداسة بين نصوص ال (VEDA)، وهو كتاب الهندوس المقدس.

ويستطيع القاريء مراجعة بعض هذه النصوص من خلال كتاب religions of ancient india للكاتب Louis rinou.

كما نلاحظ تمجيد قصيدة المهابهارتا - وهي أشهر الملاحم الهندية التي تفوق الإلياذة والأوديسة حجما وشهرةً بين الهنود - للحروب وتصف المعارك الدموية كأي ملحمة لدى الأمم الأخرى، وهي مطبوعة مشهورة لا يكاد يخلو منها بيت هندي.

❁ ❁ ❁

ونسدل الستار:

ونسدل هنا الستار وقد أيسنا أن نجد في التاريخ القديم ما ندعم به هذا الطرح الذي يربط بين الدين الإلهي والقتال، ويصور البيئة الخالية من الدين بأنها بيئة مطمئنة آمنة ولابد.

إن الحروب والقتال والنزاع والصراعات الدموية جزء لا يتجزأ من تاريخ البشرية منذ فجرها الأول ومنذ أقدم العصور وأعتى الأزمنة.

حضارات النهرين ومصر والصين والهند كلها حضارات وثنية مغرقة في وثنيتها..لا وجود هنا لمسلمين أشرار..ولا وجود لحلقات تحفيظ القرآن ولا وجود لجماعات إسلامية أصولية متشددة..

لا يوجد هنا سوى آتون ورع.. وإخناتون وابنه توت عنخ آمون.. وحمورابي وحتحور..وهان وزن ويانج..

فلنطوِ صفحة التاريخ القديم الدموي هذا وننتقل للتاريخ الأوسط علنا نجد فيه ما يدعم هذا الكلام..لعلنا نجد مملكة هادئة مطمئنة تنعم بالأمن والاستقرار والهدوء..

لنترك الشرق الأدنى وبشرة أهله السمراء..ولنترك العيون الضيقة في الشرق الأقصى.. ولنتجه هذه المرة إلى حيث العيون الزرقاء والشعر الأصفر الذهبي.. فمثل هذا الجمال لن يُنتج إلا الهدوء والأمن..فلننتقل إذن إلى اليونان القديمة.

❁ ❁ ❁

التاريخ الأوسط

اليونان القديمة:

«أسبرطة» أو «سبارتا» ، مدينة يونانية ظهرت على أنها كيان سياسي حول القرن العاشر قبل الميلاد ،كانت تربي أبناءها على القتال منذ الصغر ، فقد لاحظ الإسبرطيون أن المدينة لم تعد تسعهم بسبب كثرة المواليد فقرروا غزو المناطق المجاروة ، وعلى رأسها منطقة ميسينا ويدعى أهلها الميسينيون وقد استمرت الحرب طويلا حتى انتصرت إسبرطة وأبادت أعداءها ، وحكمت ميسينيا بقبضة من حديد ، وقررت قتل أي طفل تظهر عليه علامات النبوغ والذكاء.

في الأثناء نمت قوة (أثينا) المدينة المجاورة وقرر الأسبرطيون سحقهم ودخلوا معهم في حروب كبيرة ، ولكنهم في النهاية أصابهم الوهن وبدأت حضارتهم في الأفول ، واضطرت إسبرطة للاتحاد مع أثينا عند مداهمة بعض الأعداء للمنطقة ، وكان هذا الاتحاد هو نواة الحضارة اليونانية القديمة.

نحتاج قبل أن نتجه إلى اليونان القديمة أن نثقف أنفسنا قليلا لنتعرف على تاريخ هذا البلد القديم وهذه الحضارة العريقة..فلنتناول إذن أقدم مرجع أدبي وصلنا من التراث اليوناني بل أحد أقدم الأعمال الأدبية

التي وصلتنا في تاريخ البشرية كله..فلنتناول ملحمة الإلياذة الشهيرة التي كتبها هوميروس.

ولكن لحظة .. ملحمة.. لماذا يسمي كتابه بالملحمة.. من البداية هكذا ملاحم!

فلنقلب صفحات الإلياذة ونتعرف على موضوعها.. ما هذا؟ اليونانيون يحشدون ! الطرواديون يحشدون! طبول الحرب تقرع.. الحرب من أولها لآخرها سببها النزاع بين الآلهة اليونانية هيرا وأثينا وأفروديت حول من الأجمل بينهم! زيوس الإله الكبير لم يستطع الحكم بينهم! فيوكل الحكم لملك طروادة والذي حكم لأفروديت..لتنقسم الآلهة قسمين قسم يدعم اليونانيين وقسم يدعم الطرواديين..وتقوم بينهم معارك دموية تستمر لعقود!

ولكن السكون سيسود في النهاية ويتعاهد الفريقان على الصلح.. ويقرر اليونانيون الانسحاب بل وإهداء حصان خشبي ضخم للطرواديين كعربون صداقة وأُلفة بينهم..والذي سيستقبله الطرواديون استقبال المحتفلين في بلادهم وقلاعهم..

نعم.. هذه هي اليونان القديمة..ولو تحاربوا دهرا ولكن السلام والهدوء والأمان آتٍ لا محالة..

فلنحتفل مع الطروادیین بهذا الحصان الخشبي الضخم .. ولتقرع طبول السلام هذه المرة.. وتعُم أبواق الاحتفالات..

ما هذا.. من هؤلاء الذين يخرجون من داخل الحصان أليس هذا هو الجيش اليوناني الذي انسحب!.. اليونانيون يقتلون أهل طروادة فلا يبقون على رجل.. الرؤوس تتطاير.. الدماء تسال كالأنهار داخل طروادة..النساء الأطفال يسبون.. على جنبات المكان لا تنفك العين عن رؤية أفراس نافقة وعربات محطمة.. يداهمون البيت فلا يبقوا على أحد.. ما هذا الذي يحدث..

لم يعدُ الحصان أن يكون جزءا من الخطة الحربية لليونانيين والذي سيعرف تاريخيا بعد ذلك بحصان طروادة.

إن هذا المدخل لتاريخ اليونان القديمة (لا يطمئن!)

حوالي عام 367 ق.م. أطلت مقدونيا من مدن اليونان بعدها على الساحة بقوة واستطاعت إخضاع مساحات واسعة ودخلت مع سائر اليونانيين القدماء (الإغريق) في حروب واسعة، أُسر على إثرها أمير

مقدوني اسمه فيليب المقدوني، واحتفظ به في مدينة (طيبة) اليونانية، للضغط على ملك مقدونيا آنذاك ، بدا لفيليب أن بلده مقدونيا تبدو كقرية صغيرة إلى جانب ما يراه، أذهلته الحضارة اليونانية وبريقها، وكل إنجازاتها، كان فيليب من تلامذة الفيلسوف الشهير أفلاطون، وعندما قُتل ملك مقدونيا أعاده اليونان لحكمها بعد أن ظنوا أنهم اكتسبوا ولاءه، قرر فيليب بعد ضرب المتمردين داخل مقدونيا أن يغزو سائر البلاد اليونانية، كان مقاتلا بالفطرة، يقاتل للشهرة والافتخار، بعدها سيُغتال فيليب، ويتولى الحكم ابنه، وكان ابنه هذا من تلامذة أرسطو تلميذ أفلاطون الشهير.

فلنترك هؤلاء القادة الحربيين فإنهم سبب للبؤس والشقاء في كل مكان.. ولنبحث عن رمز العقل والحكمة في اليونان القديمة أين هو أرسطو (arestotales) كبير فلاسفة اليونان.. وأشهر عقول التاريخ..أرسطو الذي ينتسب إليه كل العقلاء في كل زمان.. أرسطو الذي ينتسب إليه العقل الغربي الذي قرر لنا أن الحرب لا توجد إلا حيث يوجد الدين..أما حيث يوجد العقل فلا حرب.. دلونا على هذا العقل إذن ..

سنرحل مع آلة الزمن إلى المعبد الذي يلقي فيه آرسطو دروس الحكمة.. لننظر إليه وهو يمشي أمامنا رائحا غاديا ليستجمع أفكاره ويرتب آراءه..ولهذا سيعرف هو وتلامذته بالفلاسفة المشائين (peripatetics).. لننهل منه أصوله العقلية ولننعم معه بالسلام والأمن..

يا لخيبة الأمل..انتقل أرسطو إلى معبد الحوريات بنات إله البحر بوسيدون..ولا وقت لديه لعموم الطلبة حاليا..فهو مشغول ببعض الدروس الخصوصية..

دروس خصوصية! حتى أنت يا أرسطو!

ولمن هذه الدروس؟

لطالب جديد مراهق في الثالثة عشرة من عمره، ابن فيليب المقدوني..

ومن ضمن الدروس شرح الإلياذة نفسها والتي أعطى منها نسخة مشروحة لهذا المراهق يصطحبها في أسفاره.

هذا المراهق تلميذ أرسطو اسمه إسكندر بن فيليب المقدوني..(الإسكندر الأكبر)

أحد أشهر قادة المعارك في التاريخ وواجهة مجموعة من أشرس الحروب في العصور القديمة بل وفي كل العصور..

بالحروب وحّد الاسكندر الداخل ثم انطلق يغزو الممالك المجاورة المملكة إثر المملكة..

الإسكندر يسقط المملكة الفارسية.. وكانت قبله لا تسقط!

الإسكندر يضم مصر..الشام .. العراق..الأناضول..البلقان..ما وراء النهر..غرب الصين...

قُتل في هذه الحروب ملايين البشر – حسب المراجع الغربية – وقد قُتل في حرب واحدة فقط من حروبه 500 ألف إنسان، نصفهم من المدنيين[١٤].

كوَّن الإسكندر الأكبر أحد أكبر الإمبراطوريات التي عرفها التاريخ القديم على مساحة تتجاوز خمسة ملايين كم مربع.[(15)]

عند موت الاسكندر سنة 323 ق.م. لن يسمي خليفة له ، مما سيؤدي إلى تنازع قادته العسكريين على السلطة من مشارق حدود الدولة

---

[14] A great book of horrible things (6).
[15] Map Imperio de alejandro , captain blood.

لمغاربها، لتدخل اليونان القديمة جراء ذلك في حقبة دموية تعرف بحروب ملوك الطوائف (diadochi) ، وستستمر حروب ملوك الطوائف هذه لقرن من الزمان، وستتسبب في إنهيار تركة الاسكندر بل وانهيار اليونان القديمة لترثها روما بعد ذلك، وتقوم الإمبراطورية الرومانية على أنقاضها.

❀ ❀ ❀

الإمبراطورية الرومانية :

فلنبق إذن في هذه الرقعة من العالم ونستمر مع الإمبراطورية الرومانية وريثة الإغريق لعلهم استفادوا من دروس الماضي..

إلا أن التاريخ يحدثنا بخلاف هذا! فالإمبراطورية الرومانية أحد أكثر الإمبراطوريات التاريخية التي عانت من الاقتتال الداخلي والتطاحن على الحكم والحروب الأهلية..بل قد تحتل مركز الصدارة في هذا الباب..

بل يصف بعض المؤرخين الغربيين الجيش الروماني بأنه أشرس آلة قتل عرفها العالم[16].

فقد بدأت الإمبراطورية الرومانية بالصراع الداخلي في وقت مبكر من تاريخها وهي لا تزال جمهورية في روما وقبل أن تبدأ بالتوسع..وفي تلك المرحلة سيقوم أحد القادة العسكريين بإخضاع أعدائه عسكريا وسيستولي على عاصمة الإمبراطورية بالقوة.. ثم يعلن نفسه حاكماً أبديًّا للبلاد! وهو أحد أشهر القادة في التاريخ (يوليوس قيصر) ..

---

[16] A history of warefare by oconell, war and epmperialism in republic rome by William harris.

بعدها سيقوم مجموعة من القادة العسكريين بقتله ومن بينهم صاحبه بروتوس الذي سيوجه له قيصر حسب بعض الروايات التاريخية كلمته الأخيرة والشهيرة (et tu brute) حتى أنت يا بروتوس؟!

ستدخل روما بعد ذلك في حروب أهلية طاحنة أشهرها حروب (مارك أنطونيو وستحالفه كليوباترا ملكة مصر وعشيقة قيصر السابقة) ضد (أوكتافيوس) والذي كان حليفه بالأمس، وتستمر سلسلة من الحروب الأهلية التي ستقضي على كل شيء داخل الإمبراطورية، وينهزم في النهاية أنطونيو وكليوبترا وينتحران، وينتصر أوكتافيوس في إحدى أشهر معارك التاريخ معركة أكتيوم البحرية، والذي سيعرف بعد تولي العرش بأغسطس، وسيكون المؤسس الحقيقي للإمبراطورية الرومانية وستتمتع الإمبراطورية بعدها بفترة من السلام الروماني تعرف تاريخيا ب (pax romana) إلا أنها لن تلبث وتنزلق في أتون حروب أهلية مستعرة مرة أخرى وذلك في حدود سنة 192 م لما بدأ الرومان يتقاتلون فيما بينهم فانتهوا إلى تنصيب أربعة حكام يحكمون الإمبراطورية سويا إلا أنهم ما لبثوا أن تقاتلوا هم أيضا فيما بينهم!

وستكون هذه الحروب الأهلية التي لا تنتهي هي القاضية على الإمبراطورية الرومانية كلها في شقها الغربي، لتكون من أشهر محطات الصراعات الدموية الداخلية في التاريخ.

❁❁❁

إحصائيات غربية بأعداد قتلى بعض الحروب الرومانية

★**حرب الإمبراطورية الرومانية الأولى** مع مملكة قرطاجة (punic war) قتل فيها قرابة نصف مليون شخص[17].

★**حرب الإمبراطورية الرومانية الثانية** مع مملكة قرطاجة قتل فيها 770 ألف شخص[18].

★في **لعبة المصارعين** (gladiator games) التي بدأت في القرن الثالث قبل الميلاد، وهي عبارة عن عرض دموي لإمتاع المشاهدين ، يقوم فيه مجموعة من المصارعين في ساحات العرض بالاقتتال أمام الجماهير ولا تنتهي اللعبة إلا بقتل حقيقي للخصوم، قُتل في هذه العروض عبر التاريخ الروماني قرابة ثلاثة ملايين ونصف من المصارعين[19].

---

[17] A great book of horrible things (13).
[18] Ibid p.(18).
[19] Ibid p. (22).

★**حروب السادة والعبيد** الرومانية (roman slave wars) وهي حروب دارت بين السادة وعبيدهم الباحثين عن الحرية قُتل فيها مليون شخص[20].

★**الحرب الأهلية بين الجمهورية الرومانية** وباقي المدن الإيطالية المعروف تاريخيا باسم (war of allies) والتي دارت بين عامي 91-88 ق. م. قتل فيها 300 ألف شخص[21].

★في **حروب إبادة اليهود** ومطاردتهم قتل الرومان 300 ألف يهودي ، بين عامي 66-74 م ، وعامي 132-135م.[22]

❁❁❁

[20] A great book of horrible things (27).
[21] Ibid p.(32).
[22] Ibid p.(50).

الإمبراطورية الفارسية:

سنترك الآن روما مؤقتا مع آلة الزمان ، وننتقل إلى بلاد فارس (إيران حاليا)، وننزل هناك، لنفتح أعيننا على مجموعة من الحروب بقيادة كورش الكبير (cyrus the great) التي تأسست على إثرها الإمبراطورية الإخمينية الفارسية[23].

ففي نفس وقت ازدهار الإمبراطورية الرومانية في غرب العالم القديم ، كانت الإمبراطورية الفارسية في الشرق تزدهر شيئا فشيئا حتى صارت المنافس الأكبر للإمبراطورية الرومانية في العالم آنذاك، وقد دخلت الإمبراطوريتان الفارسية والرومانية في سلسلة من الحروب الدموية سقطت الدولة الفارسية الإخمينية الأولى على إثرها، حيث أسقطها الإسكندر الأكبر، لتقوم على أنقاضها المملكة الفارسية الثانية الساسانية والتي ستتأثر لأسلافها وتضم جملة من الأراضي الرومانية إلى حدودها وتقيم أحد أكبر الإمبراطوريات التي عرفها التاريخ.

---

[23] *The Cambridge History of Iran. Vol. 2: The Median and Achaemenian Periods.* Cambridge University Press.

كانت الممالك الفارسية تعبد أهورامازدا إله الحكمة ، في عقيدتهم الزرادشتية الوثنية ، وكانوا يقدسون النار كونها رمزا لحكمة إلههم التي لا تنطفئ أبدا ولهذا كانوا يوقدون النيران في معابدهم ويحرصون على عدم انطفائها ، وستُعرف عقيدتهم بالمجوسية.

تاريخ الصين الأوسط:

لا يقل تاريخ الصين الأوسط دموية عن تاريخها القديم، إن لم يتجاوزه.

★فمملكة زن الصينية (xin dynasty) والتي قامت في الصين بين سنتي 9 – 24 م. إحصائيات قتلى حروبها تصل إلى عشرة ملايين شخص[24].

★وفي تمرُّد أنلوسهان على مملكة تانج الصينية (anlushan rebelion) 755 -763م فقد 36 مليون شخص[25].

---

[24] A great book of horrible things (40).
[25] Ibid p. (81).

★في حروب إسقاط مملكة يوانج الصينية (the fall of yuan dynasity) (1340 – 1370 م) سقط 30 مليون قتيل[26].

★في حروب سقوط مملكة مينج (collapse of the ming dynasity)(1635-1662م)، سقط 25 مليون قتيل[27].

★وفاقت إحصائيات حروب الممالك الصينية الثلاث التي عرفت تاريخيا بحقبة (the three kingdoms of china) ذلك كله، وهي عبارة عن حرب أهلية صينية دارت رحاها بين ثلاثة ممالك مختلفة تتنازع حكم الصين بين عامي 189- 280 م، فقد سُجِّل فيها 34 مليون مفقود ! [28]

❁❁❁

[26] A great book of horrible things (140).
[27] Ibid p.(223).
[28] Ibid p.(50).

عودة للإمبراطورية الرومانية

الإمبراطورية الرومانية في عهد قسطنطين :

ولكننا نحتاج أن نتوقف في حقبة رومانية تاريخية مهمة قبل أن نغادر مع آلة الزمان إلى مكان آخر من العالم..

وهي حقبة الحاكم قسطنطين..

قسطنطين هذا أيس من الحروب الداخلية المستعرة في الإمبراطورية الرومانية والتي لا تنتهي ، وأراد أن يقدم مشروعه في توحيد الإمبراطورية تحت راية واحدة وتحت حكم واحد..

لاحظ قسطنطين أن الإمبراطورية منقسمة على صعيدين رئيسين : الصعيد السياسي فلا يتوقف القادة العسكريون عن القتال بينهم، والصعيد الديني ، فقد كان الجميع يقاتل باسم آلهته وقد كانت الآلهة نفسها تتقاتل فيما بينها حسب أساطيرهم ويترتب على هذا تقاتل أبناء الإمبراطورية فيما بينهم كل انتصارا لآلهته ، وقد كانت الإمبراطورية الرومانية إلى هذه اللحظة إمبراطورية وثنية تعبد مئات الآلهة.

رأى قسطنطين أن الحل الأمثل لهذا التطاحن هو توحيد الإمبراطورية على كيان سياسي واحد بالقوة، فدخل في حروب طاحنة ضد الأباطرة المنافسين خاصة ماكسنتيوس وليسينيوس، واستطاع أن يكون الإمبراطور الأوحد لإمبراطورية موحدة سنة 324 م.

كما رأى أن الحل الأمثل لإنهاء الصراع الديني هو إتاحة الحرية الدينية للجميع على أن تعبد كل طائفة إلهها دون اصطدام مع آلهة الآخرين.

كانت المسيحية إلى هذه اللحظة التاريخية محاربة في روما، وأبناؤها مشردون مطاردون ممنوعون من طقوسهم وعباداتهم، وعاش قسطنطين نفسه أكثر حياته وثنيًّا، ولكنه كان أحد أهم الشخصيات التي رفعت هذه العقوبات عن المسيحيين وأمرت باعتبار المسيحية دين معتبر داخل الإمبراطورية وأتاح الحرية لأتباع المسيحية.

إلا أنه وجد المسيحيين في نفس الدائرة..حيث اكتشف أن النصارى أنفسهم غير متفقين على تصوِّر واحد لدينهم! ولا لإلههم!!

فجمع قسطنطين جميع القساوسة المعتبرين والمختلفين فيما بينهم وأمرهم بالاتفاق على تصوِّر موحَّد للدين المسيحي وإله المسيحين، وإلا فسيكون حكم الجميع القتل والتشريد.

بدأ المجلس الأول الشهير بين رؤوس المسيحيين في (nicaea) (نيقيا) سنة 325 م وهم مختلفون على عشرات ومئات التصورات وفي كل شيء، إلا أنه تحت التهديد القسطنطيني كانت تستبعد كثير من هذه التصورات شيئا فشيئا، إلا أن أبقى على تصوّر واحد، حيث اتفقوا في النهاية على عبادة ثلاثة أوثان مدمجة في (وَثَنٍ) واحد!، هذا الوثن لا يختلف كثيرا عن زيوس عند اليونان أو آمون ورع عند المصريين، أو يودي عند الصينيين أو آنو عند أهل الرافدين، ولكنه سيكون هذه المرة باسم (المسيح) (jesus) أو (christ).

وهو تصوٌّر وضع جذوره في وقت مبكر رجل روماني ادعى أنه دخل في دين المسيح عليه السلام غير اسمه إلى بولس (paul the apostle=saint paul)، ثم ادعى أنه رأى المسيح بعد صلبه وأنه ابن الله!

ولم يكن هذا الوثن الجديد واحدا في الحقيقة بل كانوا ثلاثة أوثان في وثن واحد، فوثن يرمز للأب (إله السماء) ووثن يرمز للابن (إله الأرض) ووثن يرمز للروح القدس (القوى الروحية)، ولكن الجميع اندمجوا في وثن واحد.

وهذه هي هي نفس المنظومة الوثنية عبر القرون ، وهي هي نفس التصورات الوثنية خلال الأجيال، ولعل هذه العقيدة المحرفة تعود بجذورها إلى عقيدة جلجامش من ملوك حضارة ما بين النهرين القديمة ، والذي كان يعتقد أنه ثلثا إله وثلث واحد فقط بشري!

فقط أخرج بولس ثم قسطنطين مع الأحبار والرهبان هذه العقائد الوثنية في قالب جديد!! كنوع من التصالح مع باقي الأوثان المعبودة في روما! وقد ملأت بعدها تصاوير وأوثان ابن الله هذا أو الإله المخترع مع أمه التي أنجب منها إله السماء إلها آخر فكان ابنه كنائس الشرق والغرب، بنفس الطريقة التي كانت تصور بها روما أوثانها، ولن يتوقف القساوسة عند هذا الحد بل سيخترعون دينًا لا علاقة بكثير من تفاصيله بدين المسيح عليه السلام.

وقد دخل قسطنطين آخر حياته في دين هذا الوثن الجديد وأعلن نفسه مسيحيا، وأعلنته الكنائس مناضلا فاضلا.

وكان سبيل كل من لم يرض بهذا الوثن الجديد من أبناء النصرانية القتل والتشريد والإبادة وقد استمرت حملات إبادة النصارى الموحدين وغيرهم لعقود وقرون بعد ذلك.

قسطنطين نفسه هذا هو الذي انتقل بعاصمة الإمبراطورية الرومانية إلى الجهة الشرقية من الإمبراطورية وأسس مدينة القسطنطينية ، وبعد وفاته سيحدث صدام بين شطري الإمبراطورية، الشرقي والغربي، وسيسقط الجزء الغربي من الإمبراطورية جراء الحروب الأهلية المستعرة، ومن أشرس الحروب في هذه الحقبة:

★ **الحروب الرومانية الأهلية** التي سقطت روما في قسمها الغربي على إثرها بين عامي 395-455م تم تسجيل 7 ملايين قتيل[29] .

★**حروب جيستينيان الأول في توحيد روما** (527-565 م) وتعرف تاريخيا بـ(Justinian wars) قتل فيها عشرات الملايين[30].

★في **حرب المائة عام بين إنجلترا وفرنسا** (the hundred years war) (1337 – 1453 م) قتل 2 مليون ونصف[31].

وسيستمر الجزء الشرقي وسيعرف تاريخيا للتمييز باسم الإمبراطورية البيزنطية لقرون من الزمان، وسيسقطها بعد ذلك العثمانيون بقيادة القائد الكبير محمد الفاتح، وستصبح إسلام بول (مدينة الإسلام)،

---

[29] Ibid p. (74).
[30] Ibid p. (75).
[31] Ibid p. (115).

وسيعود البيزنطيون لإسقاطها فكريا هذه المرة وهو سقوط أشد وطأة من السقوط العسكري على يد صاحبهم أتاتورك ، وسيقيمون له أوثانا موجودة إلى الآن في كل شارع وكل بيت وكل مبنى في تركيا لا تختلف كثيرا عن أوثان اليونان وروما القديمة.

عندما حدث الصدام السياسي بين الشطرين الكبيرين للإمبراطورية سيترتب على هذا ظهور مسيحية جديدة في الشرق يقوم المعسكر الشرقي للإمبراطورية بتوظيف خطابها الديني في الحشد الحربي والاستقطاب السياسي، وهو ما سيعرف بالكنيسة الأرثوذكسية، في مقابل الكنيسة الكاثوليكية الغربية ، وسيكفرون بعضهم بعضا ويتطاحنون بينهم، ثم ستظهر في وقت لاحق في الشطر الغربي حركة تعرف بحركة الإصلاح الدينية تؤسس لمسيحية ثالثة هي البروتستانتية، وستثور هذه الحركة على الكنيسة الكاثوليكية ورهبانها وملوكها في حركة تعرف تاريخيا بثورة الفرسان،وتظهر حركة إصلاحية أخرى تعرف بالكالفينية، فتنضم للصراع، وينتج عن مجمل هذا الصراع الدموي ميلاد لحقبة من أكثر حقب تاريخ أوروبا دمويةً في القرنين السابع عشر والثامن عشر، وهي حقبة تعرف بـ(الحروب الأوروبية الدينية المقدسة) (holy european wars of relegion)

تتصارع فيها المسيحيات هذه بين بعضها البعض، وتتصارع المسيحية الواحدة منهم فيما بينها أيضا، فحرب الثلاثين سنة وحرب الأربعين سنة وحرب التسع سنوات وحرب العشر سنوات وغيرها من عشرات الحروب التي سينتج عنها مقتل 10 ملايين شخص على الأقل، وتدمير أكثر القارة الأوروبية، وإبادة ثلث الشعب الألماني حيث كانت ألمانيا هي المحطة الأهم لهذه الحروب[32].

يبدو إذن أن المسيحية المحرفة لم ترث وثنية الإغريق والرومان فقط بل ودمويتهم أيضا!!

هل هي حروب (دينية) مقدسة حقا؟!

أكثر المؤرخين يرون أن هذا الصراع الدموي الذي أغرق أوروبا من شرقها إلى غربها في هذه الحقبة هو من أوله لآخره كان صراعا سياسيا على الملك والسلطان، وكان الدين مجرد عامل يتم توظيفه واستخدامه للحشد واستعطاف الجماهير فقط.

ونحتاج نحن المسلمين أن نبيِّن وجهة نظرنا في جانب هام، فنحن نعتقد أن الدين الإلهي السماوي الذي جاء به المسيح عيسى عليه السلام وهو

---

32 A great book of horrible things p.(198),(215).

رسول بشري كريم نؤمن به وبرسالته ونعتقد أن أخاه محمدا صلى الله عليه وسلم إنما تمم رسالته وشريعته ، لا علاقة له بهذا الوثن الذي اخترعه الرومان ثم انقسموا فيه ثم تقاتلوا وتطاحنوا فيما بينهم في سبيله! بل هو وثن اخترعوه هم .. وهو صنم ابتدعوه هم.. أما المسيح عليه السلام فهو أجل من أن يأتي بمثل هذا التصور ثم الجنون الذي تبعه!

ونعتقد أن تلك الصلبان التي رُفِعت وأسيلت الدماء تحتها أنهارا لا علاقة لها بالمسيح عليه السلام فهو لم يصلب أصلا!

ولهذا فنحن نعتقد أن هذه الحروب التي عُرفت تاريخيا بالحروب الدينية المقدسة وقُتل على إثرها الملايين ليست هي حروب دينية بل هي حروب وثنية لادينية بامتياز قاتلت في سبيل وثن وصليب لا علاقة لهما بدين رب السماء.

ولكنها وثنية صُبِغَت بقداسة السماء لتوظَّف وتستخدم في خدمة مصالح الأرض من سلطة ومُلك من جهة وفي تحريف دين السماء من داخله على أيدي مدعيه.

❁❁❁

أمثلة دموية متنوعة من التاريخ الأوسط:

شهدت هذه الحقبة في نواحي أخرى من العالم أيضا أحداثا دموية من الأعنف في التاريخ أهمها:

★ **حروب جنكيز خان** لإخضاع العالم كله! (1206-1227) فقد قدرت أعداد القتلى على يد قواته من شرق العالم وغربه بـ40 مليون شخص[33].

★وفي **حروب تيمورلنك (1370-1405)** قدرت أعداد الضحايا بـ17 مليون[34].

وفي جهة أخرى من العالم:

★في الحروب التي سقطت **حضارة مايا** على إثرها في منطقة المكسيك وجواتيمالا اليوم (mayan collapse) (790-909 م)، قتل أكثر من 2 مليون شخص[35].

❁ ❁ ❁

---

33 A great book of horrible things (115).

34 Ibid p. (146).

35 Ibid p. (26).

التاريخ الحديث

تمهيد

في تاريخ أوروبا الأوسط كما رأينا كانت المسيحية (المحرفة) تضرب بجذورها في أعماق الكيان الغربي، ولا يمكن أن تُقتلع جذور كهذه في ليلة وضحاها، لا يحدث هذا في عالم الواقع.

دعونا أولا نشير إلى حقيقة تاريخية وهي أن وضع الكنيسة وباباواتها في أوروبا وعلاقتها بمؤسسة الملك لم تكن متشابهة إلى حد كبير.

في بعض الجهات كان البابا هو الحاكم الفعلي حيث تفوق سلطاته سلطات الملك، وفي بعض الجهات كان الأمر على العكس من ذلك حيث كان يسيطر الملك على القرار الكنسي، إلا أنه في كل الأحوال كانت الكنيسة جزءا لا يتجزأ من واقع الحكم ونسيج المجتمع في آن.

اصطلح المؤرخون الغربيون على تسمية تلك الحقبة بحقبة القرون الوسطى أو قرون الظلام (dark ages) واصطلحوا على تأريخ العصر الحديث من لحظة إزاحة هذه الجذور الكنسية الضاربة في ذاكرة التاريخ الغربي.

ويبدو لنا أن ثمة تراكمات تاريخية كبيرة وتطورات متتالية عبر القرون أدت بمجموعها إلى هذه النتيجة النهائية = عصر ما يسمى بالحداثة، فمثل هذه النتيجة لا يمكن أن تكون إفراز لحظة.

تبدأ هذه التراكمات في رأينا من زمن فلاسفة الإغريق الذين يمثلون ينبوع نهر العقل الغربي في كل تحققاته التاريخية عندما قرروا أن يكون العقل هو المحرك الرئيس بل الوحيد في عملية إنتاج الأفكار وتصورات الوجود والخلق والغاية والمصلحة والحكم والسلم والحرب وكل شيء إلخ.

ثم المنعطف الذي مرت به الفلسفة الغربية برفض إدراج بحث (ما بعد الطبيعة= الميتافيزيقيا) في العلوم الفلسفية كونه لا يقوم على أدلة ملموسة محسوسة، وهم هنا لم يرفضوا فكرة وجود (ما بعد الطبيعة) ولكنهم يرفضون مركزية هذا العلم، ويرفضون تسليط هذا العالم الغيبي على علوم الحياة بشتى ميادينها الخلقية والوجودية والاجتماعية والثقافية والسياسية، على أن يبقى المرء حرًّا في اعتقاده فيما بعد الطبيعة بما يشاء على أن يبقى بحثا شخصيا وهامشيا على مجرى الحياة.

لاشك أن هذا المنعطف أيضا أضاف ثقلا إلى تلك التراكمات التاريخية.

ثم بولس وهو يحرف النصوص المقدسة ويخضعها للتصورات الوثنية التي ورثتها أوروبا عن عقول الفلاسفة السابقين ويذيبها في المباديء الفلسفية الإغريقية بغرض تبيئتها في البيئة الغربية الوثنية التي لم تتقبل ابتلاع المسيحية الحق ولم تهضم فكرة تنحية أوثانها عن مسرح الحياة.

ثم علماء المسيحية الذين خاضوا في اللاهوت المسيحي خوض الفلاسفة الأول ورفضوا إخضاع عقولهم لسلطة الوحي، فخرجوا بشتى التصورات الفلسفية الوثنية القديمة في ثوب دين جديد.

ثم قسطنطين وهو يعتمد مسيحية وثنية محرفة ويمهد لجعلها جزءا من النظام الحاكم لقرون تأتي.

ثم سنوات الدماء تلك تحت راية الصليب.

كل هذه العوامل وغيرها أدت إلى خلخلة الكيان الكنسي من داخله والهجوم عليه من خارجه، حيث بدأت الانشقاقات تدب في جسد الكنيسة من داخلها وبدأت الأصوات ترتفع من الخارج تعلن عن تململها من السلطة البابوية وقراراتها.

تمظهرت هذه الانشقاقات في الداخل الكنسي في مظاهر كثيرة نستطيع تلخيص أهمها في خمسة تطورات رئيسة[36].

[36] وبالمناسبة هي تطورات مشابهة لما يحدث الآن في العالم الإسلامي.

التطور الأول: مرحلة البحث عن فهم جديد للنص المقدس، وتنحية علماء الكنيسة عن مشهد تفسير النصوص.

فحركات الإصلاح وعلى رأسها حركة مارتن لوثر نادت بإسقاط مرجعية علماء الدين المسيحي وطقوسهم **والاستقاء المباشر من الكتاب المقدس**، ويعد لوثر أيضا من أوائل الداعين إلى الفصل بين الدولة والكنيسة فقد انسحب الله —حسبه- من العالم المادي الذي لا يملك أي قيمة روحية[37] ورأى أن الدين قضية شخصية لا يحق للدولة التدخل فيها[38].

إلا أن حركة لوثر لم تعدُ إحلال بعض الأحبار والرهبان الجدد محل الأُوَل، فقد بقيت الخرافة والوثنية ضاربة في تفسيرهم هم للنصوص أيضا، كما أنها لم تحل إشكالية الدماء والحروب المقدسة بل عززتها وأدخلتها في مرحلة أشد دموية، فقد قسمت حركة لوثر أوروبا المسيحية إلى ثلاثة أقسام فكان كل من شمال ألمانيا وشرقها وإسكندانافيا يعتنق اللوثرية، بينما كانت إنكلترا واسكتلندا وشمال

---

37 Not by reason alone by Joshua Mitchell pp23-30.

38 Fields of blood pp219-220.

هولندا وراينلاند وجنوب فرنسا كالفنية، وبقيت باقي بلدان القارة الأوروبية كاثوليكية، وتقاتلت هذه الجهات فيما بينها.

التطور الثاني : رفض الخضوع لسلطات البابوات كمنظومة حاكمة.

لم تتوقف نداءات ما سمي بالإصلاح عند رفض سلطة البابوات التفسيرية للنص المقدس بل ورفض سلطتهم السياسية أيضا ومركزيتهم في منظومة الحكم، ومن أهم مظاهر هذا التطور:

أ: حركات الفرسان: حيث بدأت كثير من حركات الفرسان الشهيرة تعترض على شعائر الكنيسة وقيودها وطقوسها وتفضل العمل ككيان خاص مستقل عن أوامر البابا.

ب: تقويض بعض الملوك لسلطات البابا والكنيسة وإضعافها، فقد تراجعت السلطة البابوية خلال القرن الرابع عشر وأصبحت السيطرة للملوك.[39]

---

[39] Fields of blood pp213

كانت هذه المظاهر من أهم مظاهر خلخلة الكيان المسيحي من داخله في أوروبا، وبدَت المسيحية في مهب الريح تستعد لضربات أخرى أشد ضراوة.

التطور الثالث: تنحية النص المقدس نفسه

في المرحلة السابقة تم تحييد سلطة البابوات التفسيرية للنصوص، وتقديم تأويلات موازية لتأويلاتهم، وتقويض سلطاتهم السياسية، وسيتطور الأمر إلى موضع أكثر عمقا بالدخول في **مرحلة المناداة بتحييد النص المقدس نفسه والبحث عن مقاصده وروحه**، فبعد أن نادى لوثر وغيره من المصلحين بتحييد فهم البابوات وتحييد فهم الكنيسة والاستقاء من النص المقدس مباشرة، واجه القراء الجدد للنص المقدس إشكاليات عدة في فهم ما رأوه تناقضا وتعارضا وغموضا، فمهّد هذا لظهور حركة إصلاح جديدة ذهبت إلى أبعد مما تقدم حيث نادت بتحييد النصوص المقدسة أيضا والاكتفاء بالبحث في روح النص ومقاصده.

وكانت الشخصية المحورية في هذا التطور المهم هي شخصية إدوارد هربرت المعروف بـ (Herbert of cherbury) (1648م)، والذي اقترح في أحد أهم أعماله (de veritate)وهو الكتاب الذي سيؤثر فيما بعد في نظريات هوغو غروتيوس (1645م)، وديكارت

(1650م) وجون لوك (1704م)، بل في نظريات تطويع الدين ككل.

حاجج هربرت في كتابه هذا على أهمية البحث عن مقاصد الكتاب المقدس والغوص في روحه مع عدم الانشغال بتفاصيله، ورأى أن المسيحية هي مجموعة خمس حقائق فطرية في العقل الإنساني:

أ: وجود معبود فائق للطبيعة والبشر، ب: تجب عبادته، ج: وتجب خدمته عبر الحياة الأخلاقية، د: وعلى البشر ألا يقعوا في الخطايا، هـ: لأنهم سيكافؤون أو يعاقبون من الله على أعمالهم بعد الموت [(40)].

التطور الرابع:

في المرحلة السابقة صارت المسيحية المحرفة و التي يسميها الناس دينا ديانة لا كتاب مقدس لها ولا نصوص مقدسة ولا عالم ولا عابد ولا شيء، نُزعت القداسة عن كل شيء، وصار المقدس هو مجموعة من المباديء المشتركة بين الأمم، ومجموعة من الشعارات التي قد تفسر بمئة وجه.

---

[40] Edward lord Herbert , de veritate, translated by meyrick h. carre , bristole uk, 1937, p303.

عندما تحدث هربرت عن مباديء مشتركة بين البشر، وأن المبدأ الأول هو عبادة مقدس يفوق الطبيعة، نوقش كلامه بأنه من المعلوم أن مباديء البشر تختلف وعقولهم ومداركهم تتنوع ولم يجمع البشر على عبادة معبود معظم، فهذا المبدأ أيضا قابل للنقاش والاختلاف.

إذن ففي هذه المرحلة تمت خلخلة حتى المباديء الرئيسية للكتاب المقدس لأنه ببساطة لم يصبح مقدسا أصلا.

التطور الخامس:

بات من السهل جدا الآن بعد أن ضاعت ملامح المقدس القديم أن نعيِّن ونحدد مقدسا جديدا يحل محل المقدس القديم ونجعله ذلكم المقدس الضائع التي نادت المسيحية وسائر الملل وأجمع البشر على قداسته.

بعبارة أخرى: يبدو الآن أن أسطورة ابن الله هذه قد تم استهلاكها عبر القرون ولابد من المجيء **بأبناء آخرين لله على مسرح العالم الغربي**.

❁❁❁

الآلهة الجدد: أبناء الله!

الإنسان مفطور على تقديس مقدَّسٍ ما، رأينا هذا في تاريخ البشرية كله، كل إنسان يستشعر بداخله أن ثمة قوى عظمى أكبر من قوته، يستشعر أن ثمة كيانا أكبر بكثير من كيانه، وثمة وجود يفوق وجوده، قد يتجاهل هذا الشعور الوجداني في لحظات القوة ولكنه سرعان ما يتملكه في لحظة ضعف.

يصاحب هذا الشعور في فطرة الإنسان شعور بالاستعداد لبذل أي شيء في سبيل هذا المقدّس، حياته عمره جهده ماله كل شيء.

كان روّاد هذه المرحلة يعرفون أنهم عندما يسحبون القداسة عن الكنيسة والمسيحية فإنهم ولابد سيضفونها على شيء آخر، فالقداسة قيمة لا يتخلى عنها الإنسان بفطرته.

كان المقدس الجديد الذي يتم تهيئته لإحلاله محل المقدس القديم، هو أي شيء إلا (الدين).

الملك من الممكن أن يكون هو هذا المقدس، الدولة..جائز، الأمة .. وارد، العرق.. لا بأس..، فليكن المقدس إذن أي شيء، أما الدين فلا.

ولكن الناس كانوا يقدسون المقدس القديم لأن ابن الله نفسه هو من جاءهم به ، فكيف يُقنَع الناس بتقديس هذا المقدس الجديد ونزع قداسة القديم، لابُد من أن يرسل الله لنا أحد أبنائه ليضفي عليه مراسيم القداسة.

نحتاج أن نتوقف هنا لننقب في ذاكرة الفلسفة الإغريقية قليلا ، كان فلاسفة الإغريق يعتقدون أن الناس لا يستوون في عقولهم وأفهامهم وحكمتهم، وأن سائر الناس ينبغي لهم الإذعان لأهل العقول والحكمة ، وأن الذين فاقوا الناس عقلا وحكمة هم في الحقيقة مؤيدون من قوى ميتافيزيقية خارقة أهدتهم هذه القوى بعد أن وصلوا مع طول الممارسة إلى مرحلة تؤهلهم لهذا ، هذه الفلسفة التي ستدخل بعد ذلك على ما يسمى بالفلسفة الإسلامية حيث فسروا الوحي والنبوة بشيء من هذا.

لم تخضع أوروبا القديمة إذن لعقول سقراط وأرسطو وأفلاطون وغيرهم إلا بعد أن أقنعوهم بأن عقولهم مؤيدة من قوى ميتافيزيقية خارقة.

وهل القداسة إلا هذا؟!

إلا أن عقول هؤلاء لم تنهِ أنهار الدماء ولم تحل مشكلة الصراعات الإغريقية والرومانية التي لا تنتهي، فقام قسطنطين بإدخال عنصر جديد ودمجه مع فلسفات الإغريق ووثنياتهم كما رأينا، ليخرج بمقدس جديد سماه ابن الله، لعله ينه كل ذلك وتتوحد أوروبا تحت إمرته، ولكن ابن الله المزعوم لم ينه شيئا بل استمرت الصراعات الدموية كما هي ، فلا ابن الله هذا ولا أبناء الله الإغريق صنعوا شيئا، فكنّا بحاجة إذن إلى أبناء جدد لله ذوي عقول مؤيدة من القوى الخارقة تحل لنا معضلة الصراع الإنساني والدم.

عندها سيظهر على مسرح التاريخ أبناء جدد لله! وهم من سيهدينا إلى المقدس الجديد.

سيتحدث أبناء الله الجدد من رواد هذه المرحلة كتوماس هوبز[41] مثلا 1679م عن أن الدين كان هو سبب كل صراعات الماضي (هم هنا ينزعون صفة القداسة عن الدين) ولكنهم سيردفون قائلين: فيجب إذن أن تنهي الدولة سلطات الكنيسة وتسيطر هي عليها.

---

41 أفكاره المشار إليها في كتابيه (behemoth=the long parliament) و on the citizen وقد تكلمت عليها بشيء من التفصيل في كتاب مستقل.

سنلاحظ هنا أنهم لم يصنعوا شيئا سوى إحلال مقدس جديد (الدولة/الإله) مكان المقدس القديم (الكنيسة/الإله) .

في كتابه اللوياثان (leviathan)[42] كان هوبز يحاجج أنه كما أخضع الله اللوياثان وحش الفوضى المذكور في الكتاب المقدس فيجب على الملكية أن تكبح القوى المدمرة للدين.

ونلاحظ أنه هنا يُقرن بين الملكية وبين الله فالملكية هي التي ستنفذ رغبة الله في تدمير هذه القوى، مرة أخرى يضفي القداسة على (الدولة/ الإله).

دعا هوبز الناس أيضا للتخلي عن تعصباتهم الدينية و انتخاب ملكا مطلقا وأن يتقبلوا أفكاره وكأنها أفكارهم هم.

وهل التقديس الأعمى إلا هذا؟ وهذا نموذج لل(الملك /الإله)

وفي (الأمير) لميكافيلي الذي يُعد من أوائل المراجع السياسية المعتمدة غربيا لا تخطيء عين القاريء إضفاء مسحة القداسة للأمير وأفعاله حتى إن اضطر لإخضاع المناطق المجاورة بوحشية كما كرر هذا في كتابه، وهذا نموذج تقديسي واضح (الأمير/ الإله).

---

42 Leviathan edited by Richard tuck, Cambridge university press 1991,p.223

وفي (العقد الاجتماعي) انتقد جان جاك روسو تقديس أمير ميكافيللي، وطرح فكرته كبديل، وخلاصتها أن الإرادة العامة للأمة ينبغي للجميع أن يخضع لها.

وهذا نموذج تقديسي آخر (الإرادة العامة/ الإله).

ولكن قد أورد إشكال على طرحه مفاده أن: إرادات الناس لا تتفق بل تختلف، فمن أين لنا بإرادة عامة نخضع لها الناس، يطرح روسو الجواب على هذا بما ملخصه أن العامة لا يفقهون الشأن العام ولا يعرفون مصلحتهم بل (النخبة) هي التي تعرف مصالحهم وما تقرره النخبة يجب أن يصوِّت له الجميع، ومن خرج عنه يكون خارجا عن الإرادة العامة مستحقًّا للقتل!

وهذا نموذج تقديسي دموي صارخ نموذج (النخبة / الإله).

أصر هوبز على أن القساوسة والوعاظ هم أصل المعاناة السابقة.

ويحق لنا أن نتساءل هل ستكون إزاحة القساوسة والوعاظ إزاحة مطلقة، أم سيطلع علينا قساوسة ووعاظ جدد.

رأى هوبز أن اللاهوتيين هم المتسببون في إثارة العواطف الشعبية التي تؤدي إلى حروب أهلية.

ونتساءل نحن: عندما نقضي على اللاهوتيين ستنتهي الحروب الأهلية إذن؟!

أما جون لوك[43] فالحل الذي قدمه لصراعات الماضي هو الحرية الدينية ، فالدين حسبه مسألة شخصية لا تدخل للدولة فيه.

ولكننا نتساءل: هل تقديس الدولة والعرق والأمة والملك والأمير سيكون مسألة شخصية فردية أيضاً؟! لا يبدو ذلك، فلوك نفسه الذي يدعو للحرية الشخصية يؤيد السلطة المطلقة الاعتباطية الاستبدادية للسيد على عبيده ولو أدى إلى قتلهم في أي وقت. وكان من أشد مؤيدي المستعمرات الأمريكية ونزعها من ملاكها المحليين .

حتى الخلود فقد رفض رواد هذه الحقبة فكرة الخلود بالموت في سبيل الإله، وأحلوا محله الخلود بالموت في سبيل الأمة فهذا وحده – يقول

---

43 أفكاره المذكورة في رسالته الشهيرة (a letter concerning toleration) و(two treatises of goverment)، وتكلمت على أفكاره بشيء من التفصيل في رسالة خاصة.

الفيلسوف الألماني فيتشه – هو ما يهب الإنسان الخلود، لأن الأمة وجدت منذ فجر التاريخ وستبقى بعد موتنا[44].

ومن الخطأ أن يُظن أن هذه النظريات أُجمع عليها غربيا بل ثمة نقد عميق وُجِّه لمثل هذه النظريات داخل الذات الغربية نفسها، وفي حقل العقل الغربي ذاته، فعلى سبيل المثال قد استنكر المؤرخ الإنجليزي لورد أكتون 1843-1902م فكرة (الإرادة العامة) عند روسو، متخوفا من أن الإرادة العامة التي يتحدث عنها روسو وأمثاله (إرادة وهمية) ستحطم كل الحقوق الطبيعية والحريات في سبيل الدفاع عن ذاتها[45].

وقد انتقد عشرات المتخصصين الغربيين نموذج ميكافيللي للأمير وجعلوه رمزًا للديكتاتورية ملهما لهتلر وأمثاله.

كما انتقدوا جون لوك وحريته وتناقضها.

وانتقدوا نخبة جان جاك روسو في العقد الاجتماعي.

---

44 يراجع what a people is amd what is love and fatherland in addresses to german nation, Cambridge university press 2008 p105.

45 يراجع myths and memories of the nation by antony smith p33.

وتقول كارين أرمسترونج في نقد مهم لدعوى إلغاء المقدسات من التاريخ الغربي من أجل مستقبل أفضل وأكثر أمنًا: (إن كان بإمكاننا أن نعرف المقدس على أنه ذلك الشيء الذي يقبل البشر بالتضحية بحياتهم لأجله فإن الأمة القومية قد أصبحت بكل تأكيد تجسيدا للمقدس)[46]

وقد أفردت الحديث عن الخلاف داخل العقل الغربي وتكلمت عن توجهاته المختلفة في بحث مستقل، إلا أن الذي يهمنا هنا أن التوجه السياسي العام في أوروبا وقتها صدَّر تلك الآراء وعممها وقدمها على أنها الرأي الأوحد وذلك لامتطائها في سباقه مع الكنيسة واستبدال مقعدها في الحكم.

مثل هذه الأطروحات وعشرات مثلها لأبناء الله الجدد ستقضي بإزاحة الدين من مركز القلب في أوروبا وجعله على أقصى تقدير مسألة شخصية فردية، وستصير الكنائس مبان أثرية تتحدث عن تاريخ مضى وانقضى، سيتوقف اللاهوتيون عن التلاوة وسيغادر الرهبان أديرتهم وسيخفى الكتاب المقدس قسرًا، وسنكون على موعد جديد إذن مع السلام والأمان والرخاء والاطمئنان.

---

[46] انظرfields of blood, p267

سننتقل بآلة الزمن لحضور الحدث الأكبر الذي توِّجت فيه أفكار الحداثة والتنوير هذه التي صاغها آلهة الأرض الجدد، نحتفل معهم بالأمان الذي أهدوه للبشرية، والحرية التي أغدقوها علينا.

❁❁❁

الثورة الفرنسية

مساواة، حرية، عدالة اجتماعية؟

«إن الحرية والمساواة كلمات طنانة ضخمة استغلت استغلالا بشعا، من ذا الذي لا يحب الحرية والمساواة، لقد كانت منذ الأزل من تعاليم سيدنا المخلّص، ولكن هل جعلت الثورة الرجال أكثر سعادة ؟ على العكس إننا أولاء الذين أرادوا الحرية ونابليون هو الذي دمرها وحطمها»

من رائعة عملاق الأدب الروسي تولستوي

«الحرب والسلام»

إن التاريخ الأوسط تاريخ دموي بامتياز، قُتِل فيه ملايين البشر في حروب مصالح تافهة وغايات بائسة، فلنغادر هذا الزمان سريعا مع آلة الزمن ، ونطلب منها أن تنقلنا إلى أهم محطات العصر الحديث، هناك في باريس ، قريبا من قصر فرساي أو سجن الباستيل، لنحضر الحدث الأهم في التاريخ الحديث، الثورة الفرنسية (*Révolution française*) (1789-1799م).

هنا تحتشد طبقات الفقراء والعمال ، تهتف بصوت واحد لإسقاط طبقة رجال الدين، وطبقة النبلاء الأرستقراطية، تنادي بصوت واحد (مساواة، حرية ، عدالة إجتماعية)، إن هذه الهتافات التي تملأ الأجواء حولنا مؤذنة بفجر جديد، وداعا للحروب وداعا للمآسي

ووداعا للدماء، ووداعا لرجال الدين وحروبهم المقدسة، ووداعا للكنيسة وإقطاعياتها، لا مكان هنا سوى للمساواة والحرية والعدالة الاجتماعية.

وتنتصر الثورة...

عهد الإرهاب!:

ولكن ما هذا الذي يحدث؟!

كل مَن يخالف الثوار في الرأي مصيره القتل أو السحل أو الطرد! فأين الحرية إذن!

كل من لم ينضم للثورة مصيره التشريد ! فأين العدالة الاجتماعية إذن!

هل الثوار أرباب وآلهة من خرج عن طاعتهم قُتِل!

ما هو الفرق إذن بين الثوار وبين طبقة النبلاء..

بل ما الفرق بين الكنيسة المقدسة والثورة المقدسة هذه..

وما الفرق بين رجال الدين الذين يوزعون صكوك الغفران لمن دان لهم فقط ، وبين رجال الثورة الذين يوزعون صكوك الغفران لمن انضم لهم فحسب !

هل هذا العهد هو عهد نهاية فكرة الآلهة ، أم هو ميلاد لآلهة من نوع آخر ، فتلك آلهة جاءت من وراء الطبيعة وهذه آلهة بشرية بامتياز !

ما الفرق بين الدين الذي اخترعه رجال الكنيسة ونكلوا بكل من خالفه..والدين الذي اخترعه الثوار ... وتم التنكيل بكل من يخالفه !

ما الفرق بين زيوس وآتون ورع وغيرهم من آلهة الوثنيين.. وبين ميكافيللي وروسو ومونتسيكيو .. وغيرهم من آلهة العقليين هؤلاء..

سُمِّي العهد الذي واكب بزوغ الثورة الفرنسية بين يوليو 1789 ويوليو 1794 والذي شهد مرحلة من أوسع مراحل إبادة المخالفين في الرأي في التاريخ الحديث بـ (عهد الإرهاب) ! ، نعم (عهد الإرهاب)..

يسميه الفرنسيون (*la Terreur*)

والإنجليز (the reign of terror)

وقد قُتل فيه آلاف الأشخاص وأعدم الآلاف في الميادين العامة إعداما جماعيا بدون محاكمات، وشرد الآلاف وطرد الآلاف...

بل أغرق الآلاف مع نسائهم وأطفالهم فيما يعرف بـ *Noyades de Nantes*

ويسمي المؤرخون شهر سبتمبر من سنة 1793م بسبتمبر المجازر!

(The **September Massacres**)

قال يومها قائد الثوار روبسبير[٤٧]:

If the basis of popular government in peacetime is virtue, the basis of popular government during a revolution is both virtue and terror; virtue, without which terror is baneful; terror, without which virtue is powerless.

ترجمته: (إذا كان أساس الحكومة الشعبية في وقت السلم هو الفضيلة ، فإن أساس الحكم الشعبي خلال الثورة هو الفضيلة والإرهاب! إن الإرهاب بلا فضيلة ويل ومهلكة.. والفضيلة بلا إرهاب لا قوة لها ولا أثر).

---

47 "Maximilien Robespierre: On the Principles of Political Morality, February 1794". Fordham University.

كان روبسبير قائد عهد الإرهاب هذا ومنظِّره من أشد المتأثرين بأفكار روسو في العقد الاجتماعي ومونتسكيو في روح القوانين.

اعترفت الثورة بقتل 40 ألف شخص في عهد الإرهاب بدون محاكمات، أما المؤرخون الغربيون المحايدون فيرون أنه قتل في عهد الإرهاب على أيدي ثوار الحرية والمساواة هؤلاء ما لا يقل عن 500 ألف شخص (نصف مليون إنسان) [48]!

أعدم الثوار أيضا مجموعة من العقول المتميزة التي لم تقف في صف الثورة في سائر حقول العلوم الحديثة كالكيميائي المتميز أنطوان لافوازييه (antoine lavoisier) الذي كان من أعظم المؤثرين في تطور علوم الكيمياء والبيولوجي في العصر الحديث[49]، بنفس الحماسة التي قتلت بها الكنيسة قبل ذلك الفلكي جاليليو ، فقط أذاع لنا الفرنسيون حادثة جاليليو وطاروا بها كل مطار ولم يحدثونا عن العقول التي ذبحتها الثورة الفرنسية وعلماء العلوم الحديثة الذين كانت المقصلة هي مصيرهم.

---

48 A great book of horrible things (259)

49 يراجع في مجازر الثورة التي ارتكبتها في حق علماء العلوم الحديثة (the (incidence of terror in the French revolution by Donald greer

تماما كما حدثونا عن دعم الثورة لعلماء العلوم الحديثة وأخفوا علينا أن هذا كان مشروطا بدعمهم للثورة، وأخفوا علينا أيضا حقيقة دعم الكنيسة للعلوم الحديثة شريطة أن يكون الباحثون محل الدعم من الموالين لسلطة البابا ومن ذلك استقبالهم بحفاوة لنظرية كوبرنيكوس حول مركزية الشمس في زمن البابا بولس الثالث، والتي استلهم منها جاليلو نظرياته، ولكنهم قبلوها من كبرنيكوس الموالي للبابا، ورفضوها من جاليليو المتململ من سلطة الكنيسة.

تبدو الحياة أحيانا كسيناريو متكرر يتبادل أبطاله الأدوار ذاتها لدرجة الملل.

ونحن نرى أن هناك خللاً في الطرح السائد في البحوث العربية ذات الخلفية الإسلامية التي تؤرخ لنشأة العلمانية في الغرب كرد فعل مقابل لرفض الكنيسة للعلم الحديث، فمثل هذا الطرح لا يخلو من الاختزال والمبالغة ، فموقف الكنيسة من العلم الحديث مثله مثل أي مؤسسة أخرى يتراوح بين بعض الحالات المشجعة للعلوم الحديثة الداعمة لبحوثها المحتفية بنتائجها بشرط الموالاة لسلطة البابا الداعِم كما قدمناه، وفي بعض التحققات سنجد إهمالا لهذا الباب، وفي بعض الحالات

سنجد محاربة لهذا الباب، ويغلب هذا عند خوف المنازعة السياسية وسحب البساط من تحت أقدام الكنيسة كأي كيان مستبد.

تماما كما نرى في الدول العلمانية اليوم بعضها يشجع البحث العلمي وينفق عليه ويدعمه ، وبعض هذه الدول لا تكترث له، وبعض الدول العلمانية المستبدة قد تحارب العقول المتميزة من أبنائها خشية سحب البساط الشعبي من تحت أقدامها.

وإن كنا لا نختلف في أن الخوض اللاهوتي المسيحي الذي استنفد الجهود والأوقات ثم أدى إلى الفرقة والتطاحن والدماء عطَّل عجلة الإبداع العلمي في حقل العلوم الحديثة، وكان في كثير من الحالات حجر عثرة أمام محاولات الإبداع، ولكننا نجادل في المبالغة والتعميم القائل بمحاربة الكنيسة للعلم الحديث مطلقًا، كما نجادل في جعل هذا السبب بعد تعميمه هو الدافع الأول لنشأة الفكرة العلمانية مع إهمال الأسباب الأكثر مركزية وأهمية في نشأتها، ولعلنا نفرد الحديث عن الموضوع في بحث آخر.

المعارك المقدسة:

أما المعارك المقدسة بعد إزاحة الكنيسة فلم تنته بل زاد زخمها إذ أصدر المؤتمر الوطني في 16 أغسطس 1793 توجيها بانتفاضة الجماهير ، تأمر المجتمع كله بنسائه وأطفاله بالتوجه إلى الحرب ونصر الثورة وإظهار كراهية الملوك.

نصه :

All Frenchmen are permanently requisitioned for service into armies, young men will go forth into battle, married men will forge weapons and transport munitions, women will make tents and clothing and serve in hospitals, children will make lint from old linen, and old men will be brought into the public squares to arouse the courage of the soldiers while preaching the unity of the republic and hatred against kings[50] □

[50] النص في A history of warfare, by keegan, p.344

ترجمته: (كل الفرنسيين مطالبون بالخدمة في الجيوش بشكل دائم، الشبان سيحاربون في المعارك، أما الرجال المتزوجون فسيجهزون الأسلحة وينقلون الذخيرة، وستجهز النسوة الخيم والثياب وتخدم في المستشفيات ، وسيصنع الأطفال الخيوط من الملابس القديمة، وكبار السن سيستدعون إلى الساحات العامة لرفع معنويات الجنود من خلال التشديد على وحدة الجمهورية وإظهار الكراهية للملوك).

الإبادات الجماعية:

هذا إلى جانب الإبادات الجماعية للمخالفين للثورة وأشهرها مذبحة فيندي (vendee genocide):

ففي عام 1986 ، نشر المؤرخ الفرنسي رونالد سيشر النتائج الأولية التي توصل إليها حول هذا الموضوع والتي تثبت ارتكاب قوات الثورة الفرنسية لمذبحة جماعية سنة 1794 في مدينة vendee في رسالته Le Génocide franco-français ، وهي نسخة منقحة من رسالته الدكتوراه.

تعرض بعدها سيشر للتشهير من قبل الصحفيين والأكاديميين الفرنسيين لتشكيكه في الرواية الرسمية للأحداث التي وقعت قبل قرنين من الزمن.

فقد أصبحت الثورة أسطورة مقدسة لبعض الفرنسيين على الأقل ؛ لا يتعاملون بلطف مع المشكيين في قداستها.

ولكن سيشر عاد في 4 مارس 2011 ، بوثائق اكتشفها في الأرشيف الوطني في باريس تؤكد ما عرفه منذ أوائل الثمانينات، يقول: ((كانت هناك إبادة جماعية خلال الثورة الفرنسية. كان المؤرخون على دراية تامة بمقاومة واسعة النطاق للثورة. . لكنهم دائما يصفون التمرد في فيندي (1793) بأنه حرب أهلية فاشلة بدلاً من توصيفه الصحيح (إبادة جماعية)))[51].

الحروب الأهلية والخارجية:

أعقبت هذه الأحداث موجات واسعة من الحروب الأهلية داخل فرنسا بين الرافضين لدموية الثوار والمؤيدين لإرهاب الثورة.

---

51 يراجع للحديث عن المذبحة (Reynald Secher, *Vendée: du genocide au mémoricide: mécanique d'un crime legal contre l'humanité*(preface by Gilles-William Goldnadel; afterwords by Hélène Piralian and Stéphane Courtois, Éditions du Cerf 2011)

بل وتقاتل الثوار أنفسهم فيما بينهم فهؤلاء يقاتلون في سبيل ملكية دستورية منشودة وأولئك في سبيل جمهورية فرنسية مطلوبة.

كما تشكلت التحالفات الخارجية التي وقفت مع مصالحها في الداخل الفرنسي وبدأت موجة واسعة من الحروب في القارة الأوروبية كلها.

الحروب النابليونية (1803م–1815م):

سيرث جمهورية فرنسا الثورية الفوضوية هذه بكل ما فيها من بلاء رجل عسكري اسمه نابليون بونابرت، والذي سيقود الجيش الفرنسي في سلسلة من أشرس الحروب في العصر الحديث، وتحت راية الثورة الفرنسية وتحت الشعارات الفرنسية ذاتها، مساواة حرية عدالة اجتماعية، وتحت ضجيج هذه الشعارات سيُقتل حسب المراجع الغربية قرابة **أربعة ملايين** شخص[52] بين عسكريين ومدنيين في حروب نابليون المختلفة.

نعم أربعة ملايين شخص ماتوا تحت شعارات المساواة والحرية والعدالة الاجتماعية!

[52] A great book of horrible things (259).

الغريب أن نابليون كان كلما أسقط مدينة في حروبه نادى بأعلى صوته بكلمته الفرنسية الشهيرة : dieu me la donne, gare a qui la touche

((لقد أعطانيها الله والويل لمن يحاول مسّها))

الثورة الفرنسية أيضا تقتل باسم الله !

سيسجل نابليون انتصارات ساحقة، ولكن سيؤول أمره إلى هزائم متتالية ستتوج بهزيمته في معركة ووترلو (1815م) ثم نفيه. لتبدأ عدوتهم التاريخية بريطانيا بالصعود على مسرح التاريخ الحديث.

إلا أن فرنسا استمرت في حركة احتلال بلدان العالم وقتلت في حروبها هذه ملايين البشر، ونسلط الضوء على حالة واحدة فقط، وهي احتلال فرنسا للجزائر فقد قتلت فرنسا إبان احتلالها للجزائر خلال سنتي 1830- 1847 م فقط قرابة مليون جزائري، وقد اعترف كثير من الغربيين بهذا الرقم[53] .

أما إفريقيا ببلدانها وشعوبها ومواردها فتُعرف بالقارة الفرنسية المستباحة !

[53] A great book of horrible things (280).

هذا السجل الدموي الأسود الذي واكب وتلا أحداث الثورة الفرنسية شهد به مجموعة من المؤرخين الغربيين وكتبوا في بيان وتوثيق ما حدث ، ومن أشهر ما كتب في ذلك كتاب التاريخ الأسود للثورة الفرنسية (***Le Livre noir de la Révolution française***)، الصادر في 2008، والذي ساهم فيه مجموعة كبيرة من المؤرخين والصحفيين الفرنسيين، ولا يقتصر الكتاب على نقد الجانب الإرهابي العنيف للثورة الفرنسية ، بل يتناول قِيم الثورة وما عرف بعصر التنوير، وينتقد التسليم المطلق لما نادت به الثورة وروادها الفكريون من قيم وما رفعوه من شعارات.

«ففي اللحظة ذاتها التي تخلص فيها الفرنسيون من الدين ابتكروا دينا جديدا جاعلين من الأمة تجسيدا للقيمة المقدسة»[54] التي تسال الدماء في سبيلها أنهارا.

يعبر (de tocqueville) عن شعوره بما جرى بأنه:

a new kind of religion , an incomplete religion, it is true without god, without ritual, and without life after death, but one which

[54] مقولة لكارين أرمسترونج مقتبسة من كتابها fields of blood, p.254

nevertheless flooded the earth with its [55] soldiers, apostels and martyrs.

يقول: ظهر نوع جديد من الدين، نعم ليس دينا متكاملا، نعم ليس له إله محدد، ولا طقوس، ونعم ليس فيه خلود بعد الموت، ولكنه ملأ الأرض بالجنود والحواريين والشهداء أيضا!

۞ ۞ ۞

[55] يراجع the old regimw and the French revolution, by alexis de toqueville, vol1 p101

احتلال العالم أو ما يعرف بالاستعمار

(يوتوبيا من نوع آخر)

الله لم يترك الأرض لتبقى فارغة!!

جنتيلي

انطلقت حركة الاحتلال الغربي للعالم أو ما يعرف في أدبياتهم بالاستعمار في أواخر القرن السادس عشر تقريبا، كان المستعمرون الأوائل هم البرتغاليين الذين سيطروا على أهم المعابر البحرية في شرق أفريقيا وغرب الهند والخليج العربي ومضيق ملقة وبحلول 1560م أصبح لهم سلسلة من المستعمرات العابرة للمحيطات في أنموذج متكامل لإمبراطورية تجارية مترامية الأطراف.

وفي الأثناء كان المستعمرون الأسبان يهاجمون الأمريكيتين ويقتلون سكانها الأصليين ويستولون على الأراضي ويأسرون العبيد ويسيطرون على الموارد والأموال.

في نهاية القرن السادس عشر كان الإسبان يشحنون ما يقارب من 300 مليون غرام من الفضة و1,9 مليون غرام من الذهب سنويا، وبهذه

الموارد الهائلة أقاموا أول إمبراطورية عالمية تمتد من الأمريكيتين غربا إلى الفلبين شرقا وتسيطر على أجزاء واسعة من أوروبا.

وكان مفكرو عصر النهضة الإنسانيون (humanists) منحازين إلى هذا المشروع الاستعماري.

انطلق بعدها الهولنديون ثم الفرنسيون والبريطانيون لاستعمار العالم كله من أستراليا إلى الأمريكيتين وقُتِل ملايين البشر في حركة الاستعمار هذه في مشارق الأرض ومغاربها كما سيأتي معنا.

تقوم (يوتوبيا)[56] توماس مور 1516م على تخيل المجتمع المثالي يعيش في جزيرة معزولة ولا يذهب اليوتوبيون إلى الحرب إلا لصد هجمات الجيوش الأخرى عن أراضيهم وأراضي حلفائهم أو لتحرير البشر المقهورين من الظلم والعبودية باسم الإنسانية.

وحين يزداد عدد السكان المحليين في الجزيرة وتعاني من الكثافة السكانية سيكون اليوتوبيون مخولون بإرسال أبنائهم لبناء مستعمرات على اليابسة حيثما توجد أرض لا يستغلها السكان الأصليون.

---

[56] Utopia : Cambridge university 1989 pp89-90

ورأى اليوتوبيون أنه من المبرر تماما قتال السكان الأصليين الذين يتركون أرضهم معطلة ومهملة ثم يمنعون الآخرين من الاستفادة منها وامتلاكها لأنه وفق قانون الطبيعة يجب على الآخرين الاستفادة منها.

نرى بين سطور توماس مور آراء المؤرخ (tacitus) (120م) المشهور بالتنظير والدفاع عن الاستعمار الروماني حيث كان يجادل عن أن الأرض التي لا يملكها أحد هي ملك للجميع[57].

وقبل ذلك كان أرسطو نفسه يرى أن البشر بطبيعتهم مهيؤون من قبل الطبيعة أن يكونوا حكاما (الإغريق) ومحكومين (سائر الشعوب) وأن هؤلاء المهيئين أن يكونوا محكومين لن يستسلموا وأن شنّ الحرب عليهم ضروري مثل ضرورة صيد الحيوانات البرية ![58]

ووريث الثورة الفرنسية نابليون بونابرت ثورة العدالة والحرية هو الذي مهد للاستعمار الغربي للشرق العربي عبر حملته على مصر، التي استباح الفرنسيون بعدها القارة الإفريقية من شمالها إلى جنوبها.

ومع بدء الثورة الصناعية دخل الاستعمار في مرحلة أخطر من سابقتها، فقد بدأت الثورة الصناعية مع اختراع المحرك البخاري (steam

[57] From the arts of war and peace by gentili pp47-48
[58] Aristotle, politics 1256.b.22 from the basic works of Aristotle.

engine) وكان الفحم هو قوام هذه الثورة الجديدة، وسرعان ما ترك المزارعون مزارعهم وهرعوا إلى مناجم الفحم وإلى المصانع الجديدة، فليس ثمة مقارنة بين مردود المزارع ومردود المصانع وبهذا بدأ عهد العمال الذي صوَّره ببلاغة وأسى تشارلز ديكنز في رائعته الأدبية الشهيرة أوقات عصيبة (hard times) وشبه فيها المدينة الصناعية بالجحيم.

لم يكن العمال يتصورون مع قطع الفحم الأولى التي أودعوها في المحرك البخاري الأول أنه عما قريب ستؤول هذه الثورة الصناعية ذاتها إلى تطوير صناعة السلاح والذخيرة .. واختراع أنواع جديدة من الأسلحة التي تحصد مئات الأرواح بضغطة واحدة على الزناد..وأنهم سيكونون في طليعة ضحاياها.

تم تطوير البنادق والرصاص على يد وليام آرمسترونج، وكلود مينيي، وهنري شرابنل، وجد الرماة وقتها لأول مرة أنهم قادرون على قتل خصومهم دون الاشتباك معهم ومن بعد 1300 يارد، تلك المسافة التي ستساهم في خلق حالة من التبلد الشعوري الغريزي بالتردد الذي يولده القتل عن قرب والنظر في عينيّ الضحية!

ولم يعرفوا أن هذه الثورة الصناعية الجديدة ستتسبب في دخول الاستعمار في مرحلة هي الأشرس والأكثر دموية عبر التاريخ حيث

سيستبيح المستعمر العالم بحثا عن المواد الخام التي يغذي بها مصانعه، ثم يرسل مصنوعاته إلى البلاد المحتلة ليفرض التجارة بها ويقتل التجارة المحلية، تماما كما لم يتوقع الفيزيائيون الأوائل فيما سمي بعصر التنوير وهم يخطون بالفيزياء خطوات واسعة للأمام أن يوما ما ستضاف معادلات فيزيائية يسيرة إلى معادلاتهم، وستشكل نتائجها ملامح عصر الأسلحة النووية الذي نعيشه.

الاختلاف على تفسير المقدس الجديد!

والصراع في سبيل تعيين الآلهة الجدد

بعد الثورة الصناعية وفي خضم مرحلة الاستعمار والتسابق على السيطرة على المواد الخام والموارد البشرية والتنافس بين القوى العالمية المختلفة، اكتشف الأوروبيون نمطا جديدا من إخضاع القوى المعادية بلا حرب، بل بمجرد استعراض العضلات العسكرية والصناعية.. كان قدوتهم في مثل هذه الحروب رئيس وزراء بروسيا الشهير أوتو فون بسمارك الذي استثمر أموالا كثيرة في تطوير السكك الحديدية ونظام التلغراف وزود جيشه بالبنادق الحديثة والمدافع الفولاذية، وتمكن بهذا الاستعراض الصناعي المسلح الانتصار على دول لم تكن تمتلك هذه التقنيات الحربية بدون حرب تقريبا، كما فعل في الحرب النمساوية البروسية 1866م والحرب الفرنسية البروسية 1870م والحرب الدنماركية البروسية 1864م.

اندفعت بعدها كل الأمم الأوروبية في سباق التسلح والتصنيع ، وفي خضم السباق نسيت أنه في حالة بسمارك كان التفوق لطرف واحد أما

الآن وقد صار الجميع يمتلكون الأسلحة الحديثة ويسيطرون على موارد العالم كان لابد من حَدَث يعيد توازن القوى ويعيد تشكيل خارطة الموارد والمصالح.

تقاتل الأوروبيون قديما في سبيل الآلهة المتناحرة ثم في سبيل المسيحيات المختلفة ، وسيتقاتلون اليوم في سبيل آلهتهم الجديدة أو أممهم كما يحلو لهم تسمية آلهتهم.

في أوروبا القديمة اختلف الإغريق في تعيين الإله فعبدوا ما لا يحصى من آلهة وتقاتلوا بينهم كل في سبيل إلهه.

وفي أوروبا المسيحية اختلفوا على تفسير المقدس هل هو النسخة الكاثوليكية أم الأرثوذكسية أم الكالفينية أم البروتستانتية وتقاتلوا فيما بينهم كل في سبيل إلهه.

وفي أوروبا الحديثة عندما نصبوا أممهم ودولهم ومصالحهم آلهة جديدة نسوا أنهم لم يبرحوا نفس الدائرة المظلمة وأن الآلهة الجديدة ستختلف فيما بينها كاختلاف آلهة الإغريق تماما، فالأمة الفرنسية ترى نفسها المقدس الأوحد ومثلها الأمة البريطانية ومثلها الأمة الروسية ومثلها سائر الأمم، وسيقاتل الجميع في سبيل إلهه الجديد.

الحرب العالمية الأولى

في تلك الحقبة بلغ عصر ما سمي بالتنوير ذروة إنتاجه الفكري ليشمل جميع شؤون الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية، ونُسجت آلاف النظريات ، التي وعدت بحياة يملؤها العدل والمساواة والحرية في الغرب.

وعلى الأرض تم تحييد الكنيسة ودور رجال الدين أولئك الذين تسببوا حسبهم في سلسلة من الحروب الدينية المقدسة ، ثم أحل التنويريون الولاءات القومية والوطنية محل الولاءات الدينية ، فالفرنسي يعيش ويموت في سبيل قوميته الفرنسية لا كنيسته، والألماني مثله وهكذا.

وبهذا تخلص الغرب من كابوس الولاءات الكنسية للطوائف المختلفة ومما أنتجه هذا من حروب طائفية في أوروبا المسيحية.

إلا أنه حدث ما لم يكن بحسبان أرباب التنوير هؤلاء – أو كان بحسبانهم - ! فقد تعارضت المصالح القومية المقدسة لإمبراطوريات أوروبا ودولها المختلفة كما قدمناه، تماما كما تعارضت مصالح الكنائس المتصارعة في أوروبا في العصور الوسطى، وسرعان ما دخلت

الدول الغربية في سباق عسكري و اقتصادي ليحافظ كل كيان على وجوده، ثم تشكلت مجموعة من التحالفات بين تلك الدول لمحاولة إحداث توازن قوى غربي بين الكيانات المختلفة.

إلا أن صراع المصالح لم يتوقف بل احتدم بين المتنافسين ولم يكن هناك بد عند مراكز القوى الغربية من حسم هذا الصراع بالقوة العسكرية، وسرعان ما قرعت طبول الحرب، لتتطاحن الإمبراطوريات الأوروبية والروسية فيما بينها فالإمبراطوريتان البريطانية والروسية والجمهورية الفرنسية في جهة (الحلفاء) والإمبراطورية الألمانية والنمساوية المجرية في جهة (دول المركز) ثم لحقت بهم بلدان أخرى، في حرب لم يشهد التاريخ مثلها عرفت بالحرب العالمية الأولى، حشد للقتال فيها 70 مليون إنسان كانوا قد وُعدوا بحياة رغيدة بعد سقوط الكنيسة! وخلفت من القتلى في أربع سنوات فقط هي عمر الحرب عشرة ملايين قتيل، وهو نفس العدد الذي خلفته الحروب الدينية المقدسة مجتمعة في عدة قرون!

وبقيت الدماء في أوروبا هي هي، فقط كانت تُسال أولاً باسم الكنيسة أو الملك وصارت تسال باسم الإمبراطوريات.

انتهت الحرب لصالح الحلفاء بريطانيا ومن معها، وأملت شروطها على دول المركز، وقد رأت ألمانيا والشعب الألماني في هذه الشروط ظلما وتدميرا لبلادهم فكانت هذه المعاهدات بين المتصارعين (وعلى رأسها معاهدة فيرساي) التي ظن الغرب أنها طوت صفحة الحرب هي هي التي تسببت في التجييش لحرب عالمية ثانية عندما قرر الألمان أن ينتقموا من الجميع.

الحرب العالمية الثانية

في أثناء الحرب العالمية الأولى وبعدها تحولت بعض الامبراطوريات إلى جمهوريات تبشر مواطنيها بالعدالة والحرية، حيث قامت في روسيا الثورة البلشفية 1917م بقيادة لينين لتنهي عصر الإمبراطورية الروسية وتبشر مواطنيها بالعدل والمساواة بين الجميع والحياة الرغيدة.

كما تحولت القيصرية الألمانية إلى جمهورية اتحادية تعد شعبها بنفس المصير السعيد!

قررت ألمانيا (النازية) - الخاسر الأكبر في الحرب العالمية الأولى والتي رأت أنها كانت حربًا لإذلال العنصر الألماني الآري وكسره ودفن مقوماته الحضارية - سنة 1939م اجتياح بولندا والانتقام من الجميع

وقد تحالفت معها مجموعة من الدول التي عرفت باسم دول المحور كإيطاليا واليابان والمجر، فأعلن الحلفاء الحرب على دول المحور ، وشاركت أكثر دول العالم في هذه الحرب، التي كانت أكبر حدث دموي في التاريخ، حيث قدرت أعداد القتلى ما بين 70و85 مليون قتيل! في خمس سنوات فقط!! نصفهم مدنيين أبرياء! مع عشرات الملايين من الجرحى والمشوهين واللاجئين.

سيكتب المؤرخ الأشهر ويلز في تلك الحقبة مقالا تحت عنوان ((قد وصل العقل البشري إلى منتهى حدوده)) يقول فيه: (منذ عام 1940 وقعت سلسلة من الأحداث العالمية العظمى كان من شأنها أن تدفع بأي مفكر أو ملاحظ ذكي للتأكد من أن البشر قد وصلوا إلى نهاية المطاف، وأن ذلك الكائن منتصب القامة والذي كان يتيه فخرا بتلك الصفة قد وصل بتلك الأحداث إلى نهايته وأنه قد استنفد ذاته).

❁ ❁ ❁

مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية

بريطانيا

أطل الإنجليز في تلك الحقبة على مسرح العالم كقوى عظمى، وكوَّنوا إمبراطورية كبرى مترامية الأطراف توزعت مستعمراتها من أستراليا شرقا إلى أمريكا غربا، عُرفت بالإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس.

إلا أن هذه الإمبراطورية قامت يوم قامت على أشلاء وجماجم ودماء الشعوب المستضعفة في شتى أنحاء العالم.

(the truth our empire killed millions)

«الحقيقة هي أن إمبراطوريتنا قتلت الملايين! »

بهذه العبارة افتتح الكاتب البريطاني جوهان هاري (johan hari) مقالةً أثارت الجدل نشرتها صحيفة الإندبندنت الشهيرة.

وللباحث المنصف أن يبحث عن أعداد قتلى بريطانيا في بلد واحد فقط وهو الهند أحد أشهر المستعمرات البريطانية في العالم، فقد اشتهرت في حقبة الاستعمار البريطاني للهند المجاعات العامة (famines of

british india) بدءا من سنة 1769 إلى 1900م جرَّاء استئثار الإنجليز بموارد البلاد وثرواتها ونقلها إلى بلدانهم وشركاتهم التجارية وحرمان المواطن الهندي منها، وسجلت في تلك الحقبة عشرات المجاعات.

هذه المجاعات لم تقتل شخصا أواثنين، بل ملايين البشر.

ترى بعض المراجع الغربية أن العدد لا يقل عن 27 مليون هندي.[59]

أما جوهان هاري في المقال السابق فيوصل الرقم إلى **ثلاثين مليون.**

وترى كثير من الدراسات الغربية[60] أن هذه الأرقام كلها لا تعبر عن الحقيقة وأن قتلى هذه المجاعات يمثلون 20 ٪ من سكان الهند وقتها، ولا يقلون عن 60 مليون إنسان.

---

[59] A great book of horrible things (309).

[60], "Social Crisis and Epidemic Disease in the Famines of Nineteenth-Century India," *Social History of Medicine, by* David Arnold.

The effect of famines on the population of India, The Lancet, Vol. 157, No. 4059, June 15, 1901, pp. 1713-1714; Sven Beckert (2015).

Late Victorian Holocausts: El Niño Famines and the Making of the Third World, by mike Davis.

كما زرعت بريطانيا والدول الغربية وهي التي حيدت الدين من حياتها ! الكيان الصهيوني في المنطقة الإسلامية وهو كيان ديني أصولي عقدي توراتي بامتياز !

حيث تقوم فكرة دولته على أنه الشعب الذي اختاره الله وتلك هي الأرض التي اختارها الله له.

❁ ❁ ❁

الولايات المتحدة الأمريكية

تخلت الشمس عن الإمبراطورية التي قيل أن الشمس لا تغيب عنها ! الإمبراطورية البريطانية ، وسطعت في سماء الولايات المتحدة الأمريكية هذه المرة لتتربع على صدارة المشهد العالمي كقوى كبرى تسعى أن تكون وحيدة.

عودة للوراء (تاريخ نشأة أمريكا)

«الله يدعمنا ولدينا ما يكفي من النور لمتابعة طريقنا»

جون أندرهيل

بدأ الأوروبيون (الإنجليز) تحديدا بالتوافد على القارة الأمريكية بعد اكتشافها في أواخر القرن الخامس عشر تقريبا ، واصطدموا هناك بسكان البلاد الأصليين الذين عرفوا تاريخيا بـ(الهنود الحمر) ، فكان أن ارتكبوا في حق السكان الأصليين أحد أكبر عمليات الإبادة العرقية في التاريخ كله.

تعترف الدراسات الغربية في حدود إطلاعي بـ 15 مليون تم إبادتهم في عمليات الإبادة هذه التي بدأت سنة 1492م واستمرت لقرون، إلا أن من تبقى من نسل هؤلاء يصر على أن العدد أضعاف ذلك[61]!

بالإضافة إلى نقل ما بين 10 إلى 15 مليون أفريقي في حدود عام 1800م بالإكراه ليصبحوا عبيدا في أمريكا الشمالية[62].

يحاجج هنري فان ديك عن حركة الاسترقاق هذه بأن إلغاء الرق شر لأنه يعادل الرفض المطلق للنصوص المقدسة[63]!

---

[61]راجع ثلاثية الأستاذ منير العكش (أميركا والإبادة الجماعية، أميركا والإبادة الثقافية، أميركا والإبادة الجنسية).

[62] من أهم مراجع تجارة العبيد وتعذيبهم في مرحلة نشأة أمريكا the African slave trade by basil Davidson 1450-1850

[63] يراجع the character and influence of abolitionism by henvy j. van dyke, p137.

وبعد صدور قرار إلغاء العبودية لاحقا سيستمر التمييز العرقي والإرهاب المتكرر على الأمريكيين من أصل أفريقي على يد مجموعات عنصرية بيضاء، ولن تتعب السلطات نفسها بإيقاف هذا العنف[64].

أما الشعارات التي رفعها الوافدون الجدد فكانت في وقت سطوة الكنيسة في أوروبا شعارات دينية كنسية، بالأخص الحركات البروتستانتية وحركة التطهير (puritanism)، فهذه الحركات أضفت قداسة دينية على احتلال الأرض الجديدة، ووصلت إلى حد تقديسها وادعاء أنها الأرض المقدسة الموعودة التي سينزل فيها المسيح آخر الزمان بل والمذكورة في التوراة! فكان ولابد أن تسيطر عليها الأيدي الآمنة التي ستقوم بتوطئتها لنزول المسيح، وقد لعبت الكنيسة والخطاب الديني دورا محوريا في أحداث نشأة أمريكا، ووصلت إلى درجة فرض الغرامات على شرب الخمر والقمار والزنا والتزين المبالغ فيه[65].

[64] من أهم مراجع العنف الأمريكي العنصري تجاه السود strain of violence:historical studies of American violence by Richard maxwell

[65] يراجع حول المظاهر الدينية العميقة التي فرضها المسيحيون هناك في تلك الحقبة religion and society in the early litreture of Virginia

كان الشعار السائد أن الله هو من خصص هذه الأرض للمستعمرين وأن من يقف أمامهم إنما يقف أمام إرادة الإله.

أجاب جون أندرهيل المحارب السابق في حرب الثلاثين عاما على سؤال حول ما إذا كان من الواجب على المسيحيين التعامل برحمة مع السكان الأصليين؟ فأجاب: «الله يدعم الإنجليز ولدينا ما يكفي من النور لاستكمال طريقنا»[66].

وحاجج بالدوين بأنه في الوقت الذي بدأ فيه الدين بالانهيار في أوروبا فإن المسيح انتقل إلى أمريكا حيث سيؤسس مملكته.

وكان وليام سميث يرى أن المستعمرات مختارة من الله بعناية.

أما جون آدمز فكان يراها جزءا من خطة الله لتنوير العالم[67].

بل كانت تمر المسيحية هناك بمراحل تعرف بمراحل الصحوة الدينية (the great awakening) أشهرها أربع.

---

66 نقلته بواسطة fields of blood, p. 242

67 يراجع fields of blood pp.245-246

وفي مرحلة لاحقة مع تقليص حجم الكنيسة في الواقع الأوروبي وما وجه لها من اتهامات بالتخلف سيتطور الخطاب الديني الأمريكي لشيء قريب من الخطاب الديني الحداثي مع مزيج بما يعرف اليوم بالتنمية البشرية,

وفي مرحلة لاحقة مع غياب الكنيسة تماما عن المشهد سترفع شعارات العقل والتنوير إلى جانب شعارات الحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية أيضا كالثورة الفرنسية.

ويبدو أن ثورة (البنت) الأمريكية على (أمها) البريطانية التي أرادت أن تفرض ضرائب على المستعمرات الأمريكية لتمويل حربها ضد فرنسا تعد حدثا محوريا في هذا التحول فقد كان قادة الثورة متأثرين بحركة التنوير ومستلهمين لأفكار لوك وكانوا من الربوبيين الذي لا يعتقدون بألوهية المسيح ولا يعتقدون بالوحي هذا الحدث الذي أعلن الاستقلال على أعقابه.

وقام توماس جيفرسون 1826م وجيمس ماديسون (1836م) هنا بدور لوك وهوبز هناك.

فجيفرسون[68] كان يطرح الحرية الدينية، فكل إنسان له حق اختيار دينه، ولكن ما هو الدين الذي يحق لك اختياره؟ يرى جيفرسون أن الدين هو محض إيمان واعتقاد شخصي لا يكتسب عن طريق الوحي! فجعل الدين الذي أنت حر باختياره مجموعة من الأفكار المشتركة بينك وبين غيرك لا علاقة لها بشيء مقدس.

وحاجج ماديسون[69] بأن العبودية للدين هي قيد يضعف العقل ولا يمكن أن يتناسب مع أي مشروع نبيل.

وكانا يطرحان أن الدين نشاط إنساني مستقل ومنفصل بصورة جوهرية عن السياسة.

---

[68] يراجع faith of our fathers by Edwin gawstad, san Francisco harper and row 1987, p.38 وقد تكلمت على أفكاره بشيء من التفصيل في بحث آخر.

[69] يراجع memorial and remonstrance وقد تكلمت على أفكاره بشيء من التفصيل في بحث آخر.

جيفرسون هذا هو نفسه الذي خاطب وزير الحرب بالقول بأن السكان الأصليين في أمريكا هم شعب متخلف يجب أن تتم إبادتهم أو طردهم أبعد ما يمكن، إلى الجانب الآخر من المسيسيبي مع وحوش الغابة(70).

ومع اختلاف الشعارات والرايات ستبقى الغاية واحدة وهي إبادة السكان الأصليين سواء كان هذا باسم الكنيسة أو باسم التطور الطبيعي للبشرية أو باسم العقل أو باسم أي شيء آخر وستسال دماء السكان الأصليين أنهارا في سبيل مجد الولايات المتحدة الأمريكية.

وبعد إبادة السكان الأصليين أو تشريدهم سيتم على وقع تنظيرات جيفرسون وماديسون إخضاع الكنيسة التي فتحت البلاد بالأمس ومصادرة ثرواتها وإزالة 4000 كنيسة وتم إذلال القساوسة وتجريدهم من أعمالهم.

نحن إذن على أعتاب عهد جديد من الأمان والاطمئنان، فلا مكان لكنيسة هنا أو قسيس.

---

70 يراجع الكتاب المهم genocide in the age of the nation state, vol2:the rise of the west and the coming of genocide pp26-27. ويراجع أيضا للأهمية American holocaust: the conquest of the new world.

أمريكا بعد انتصار الحداثة تضع بصمتها على العالم

بعد مرحلة تحييد الدين وإزاحة الكنيسة كان العالم الحديث على موعد مع البصمة الأمريكية الأولى التي ستشكل ملامح هذا العصر الجديد.. قد أُزيحت الكنيسة وتم تحييد الدين وأُبعِدت الشعائر..فلننعم بالسلام إذن.. أو هكذا قيل!

كان الحدث العالمي الأول الذي أطلت فيه أمريكا الحديثة برأسها على العالم هو الحرب العالمية الثانية، حيث قامت بوضع اللمسة الختامية لهذه الحرب بإسقاط قنبلتين نوويتين على مدينتين يابانيتين (هيروشيما وناجازاكي) (6-9 أغسطس 1945)، قتلت هذه القنابل حسب الإحصاءات الرسمية 350 ألف إنسان عامتهم من المدنيين، أما الجرحى والمصابين والمشوهين جينيًّا فلا حصر.

أقر وقتها المجتمع الدولي بشرعية الضربة النووية في سبيل حماية الأمة!

ثم استمر مسلسل الدم!

*يرى مجموعة من المؤرخين الغربيين أن أعداد القتلى على يد الجيش الأمريكي أو على يد وكلاء أمريكا في العالم منذ نهاية الحرب العالمية

الثانية إلى اليوم يتراوح ما بين 20 – 30 مليون إنسان، و في 37 دولة حول العالم.

*وترى دراسة أمريكية حديثة نشرت في أواخر عام 2015 للكاتب الأمريكي جيمس لوكاس (james A. lucas) وجوب الاعتراف بالجرائم التي ارتكبها الجيش الأمريكي ووكلاؤه بحق العالم[71].

تكشف هذه الدراسة -التي افتتحها كاتبها بأننا قبل أن نتحدث عن أعداد قتلى هجمات سبتمر يجب أولا أن نتحدث عن أعداد القتلى الذين قتلناهم نحن حول العالم! - أن القوات العسكرية الأمريكية كانت مسؤولة بشكل مباشر عن حوالي 10 إلى 15 مليون حالة وفاة خلال الحروب الكورية والفيتنامية وحربي العراق (حرب العراق والكويت، ثم حرب احتلال العراق).

كما ترى الدراسة أنه في الحروب الأخيرة كان هناك ما بين تسعة إلى 14 مليون حالة وفاة في أفغانستان وأنغولا وجمهورية الكونغو الديمقراطية وتيمور الشرقية وغواتيمالا وإندونيسيا وباكستان

---

[71] US Has Killed More Than 20 Million People in 37 "Victim Nations" Since World War II, article by james lucas.

والسودان.

وترى الدراسة أن جميع أجزاء العالم تقريباً منذ الحرب العالمية الثانية كانت هدفاً للتدخل الأمريكي.

أما الاستنتاج العام الذي تم التوصل إليه فهو أن الولايات المتحدة على الأرجح كانت مسؤولة منذ الحرب العالمية الثانية عن وفاة ما بين 20 و 30 مليون شخص في الحروب والصراعات المنتشرة في جميع أنحاء العالم.

أما أعداد الجرحى فترى الدراسة أنه عشرة أضعاف أعداد القتلى على الأقل.

*ففي **أفغانستان** ترى الدراسة أن السياسات الأمريكية مسؤولة عن مقتل ما يقارب 2 مليون شخص في هذا البلد.

*وفي **حرب احتلال العراق** (2003م) تشير الدراسة إلى أن الدراسات الغربية الأمريكية تحديدا اعترفت برقم 650 ألف قتيل عراقي في الحرب، ونعتقد نحن أن هذا الرقم لا يمثل حتى نصف الحقيقة.

*وفي **أنجولا** ترى الدراسة أن الصراع الأمريكي الكوبي على النفوذ فيها تسبب في مقتل ما يتراوح بين 300 ألف و750 ألف شخص.

*وفي **بوليفيا** دعمت أمريكا الديكتاتور القمعي هوجو بانزر وما ارتكبه من مجازر في حق مخالفيه.

*وفي **كمبوديا** أدى القصف العسكري الأمريكي إبان حرب فيتنام، لإحداث حالة من الفوضى وإيجاد بيئة دموية في البلاد حيث تولى الخمير الحمر (عرقية كمبودية) مقاليد الحكم وقاموا بعمليات إبادة لكل من لا ينتمي لعرقيتهم، وقد قتل في عمليات الإبادة هذه ما لا يقل عن 2 ونصف مليون كمبودي.

*وفي تدخل أمريكا في صراع **الكوريتين** نجم عنه مقتل قرابة نصف مليون كوري.

*أما حرب **فيتنام** الشهيرة فتقول الدراسة أنه وفقا لبيان الحكومة الفيتنامية في عام 1995 فإن عدد الوفيات بين المدنيين والعسكريين خلال حرب فيتنام 5.1 مليون.

*فإن أضيف لهذا الرقم عدد الوفيات في تدخل أمريكا في **كمبوديا**

ولاوس وهو تدخل متعلق بحرب فيتنام ذاتها، وكانت حوالي 2.7 مليون ، فإن إجمالي عدد القتلى في حرب فيتنام يكون 7.8 مليون. أما لجنة الحقيقة الافتراضية الأمريكية فتعترف برقم 5 ملايين .

*ويعترف روبرت ماكنمارا ، وزير الدفاع السابق ، وفقا لمجلة نيويورك تايمز بأن عدد القتلى الفيتناميين بالملايين ولكنه اختار رقم 3.4 مليون.

وتراجع باقي قائمة القتلى في شتى أنحاء العالم على أيدي القوات الأمركية وحلفائها في الدراسة المذكورة.

❁ ❁ ❁

الاتحاد السوفيتي

في خمسينيات وستينيات القرن الماضي تقاسم النفوذ على العالم إلى جانب أمريكا في الغرب الاتحاد السوفيتي في الشرق، منطلقا من خلفية إلحادية ترى أن الدين أفيون الشعوب.

فلا وجود هنا لدين ولا يسمح لمسجد ولا لكنيسة، وكما فعلت فرنسا بإزالة دين الكنيسة وإلهها وأحلت مكانه مجموعة من الآلهة البشرية ممن عرفوا برواد عصر التنوير ، على نفس الخطا بعد أن صار الدين السماوي أفيون الشعوب في الاتحاد السوفيتي، سيحل دين ماركس وإنجلز مكانه، وسيكون المعتقد الصحيح هو ما سيمليه عليك لينين! ثم انضم إلى قائمة آلهة الشيوعية إله رابع هو ستالين ، وكل من سيخرج عن ملة ماركس أو عن دين لينين أو شريعة ستالين، فسيكون مصيره القتل ، والقتل فقط.

وقد ترتب على هذا قتل ملايين البشر، بتهمة الخروج عن الدين الشيوعي، في مختلف قارات العالم، وبلدانه.

يرى كثير من المحللين والمؤرخين أن الاتحاد السوفيتي ووكلاءه في مختلف دول العالم مسؤولون عن مقتل ما لا يقل عن 100 مليون إنسان.

أكثرهم في الصين التي اعتنقت الشيوعية ونكلت بكل من خرج عنها، فقتلت 60 مليون إنسان، ثم تأتي دول الاتحاد السوفيتي وكثير منها كانت دولا إسلامية في جنوب الاتحاد في المرتبة الثانية حيث قتل قرابة 20 مليون إنسان، وطمست شعائر الإسلام ومحيت مظاهره وشعائره من كل بيت وشارع، كما قتل قرابة مليون ونصف أفغاني في الحرب الروسية الأفغانية، ثم تتقاسم كمبوديا وفيتنام وكوريا الشمالية وإثيوبيا وأمريكا اللاتينية باقي الرقم، حيث قتل الملايين في تلك الدول جراء تنازع النفوذ بين روسيا الشيوعية وأمريكا الرأسمالية في الغالب.

بينما يرى كثير من المؤرخين أن ستالين وحده مسؤول عن مقتل 20 مليون إنسان[72].

من المراجع الغربية التي وثقت هذه الأرقام كتاب (*Le Livre noir du communisme: Crimes, terreur, répression*) (الكتاب الأسود للشيوعية: الجرائم، الإرهاب، القمع) الذي نشرت نسخته الفرنسية سنة 1997م، ثم نشرت نسخته الإنجليزية سنة 1999م

[72] A great book of horrible things p.382

بعنوان (***The Black Book of Communism: Crimes, Terror, Repression***).

وساهم فيه عدد كبير من الكتاب الغربيين.

أما صاحب كتاب (a great book of horrible things) فقد خصص فصلا بعنوان (the black chapters of the communist history..) (الفصول السوداء للتاريخ الشيوعي)، ذكر فيه مسردا بقتلى الشيوعية حول العالم ويرى أن الرقم 60 مليون شخص.

❁ ❁ ❁

متفرقات دموية

□أكثر القادة العسكريين دموية في العصر الحديث:

نذكر أيضا مجموعة من القادة العسكريين الذين قتلوا ملايين البشر في سبيل السلطة/ الإله أو الدولة/ الإله أو القومية/ الإله بناء على أحد المراجع الغربية (a great book of horrible things) :

*تسبب **هتلر** في حروبه الشهيرة لسيطرة النازيين على العالم في قتل 40 مليون إنسان، منافسا بذلك جنكيز خان في حروبه للسيطرة على العالم.

* وتسبب **ستالين** في قتل 20 مليون إنسان بين سنتي 1928- 1953.

*وتسبب **موسوليني** في مقتل قرابة مليون إنسان في حرب إيطاليا في أثيوبيا فقط.

*أما **نابليون** رمز الثورة الفرنسية ف4 مليون إنسان بين عامي 1792-1815. وقتل قادة الثورة الفرنسية في عهد الإرهاب نصف مليون شخص.

*وقتل **كرومويل** في حربه على إيرلندا قرابة 400 ألف شخص.

حركة الاستعباد العالمية للأفارقة

أما على صعيد الاستعباد والاسترقاق:

فتوثق لنا المراجع الغربية استعباد 16 مليون أفريقي بين سنتي 1452-1807 ، استعبدهم الأوروبيون ثم الأمريكيون لبناء حضاراتهم المعاصرة التي نراها اليوم[73] فيما عرف بـ (atlantic slave trade)، أما قصص استعبادهم وبشاعتها فقد نتحدث عنها في بحث آخر.

❁ ❁ ❁

الإبادات العرقية

ترى بعض المراجع الغربية[74] أن أكبر حركة إبادة عرقية في العصور الحديثة هي إبادة السكان الأصليين لأمريكا المعروفين باسم الهنود الحمر، وقد أشرنا لها، ويأتي بعدها إبادة اليهود على يد هتلر بناء على المراجع الغربية ذاتها، ثم إبادة العرق الأوكراني على يد ستالين، وتعد

---

[73] A great book of horrible things (161).

[74] Ibid p.(189).

حروب الإبادة في رواندا، من أشهر حروب الإبادة الإفريقية، كما أن حروب الإبادة في كمبوديا والتي تسبب بها الصراع الشيوعي في البلد فمن أشهر حركات الإبادة في جنوب آسيا.

الحروب الأهلية

أما أشهر الحروب الأهلية في التاريخ الحديث التي أسقطت ملايين الضحايا[75] **:**

*ففي **الحرب الأهلية الروسية 1918- 1920** قتل 9 مليون شخص .

*وفي **الحرب الأهلية الصينية 1926- 1937** قتل 7 مليون شخص.

*وفي **الحرب الأهلية الإسبانية 1936-1939** قتل 365 ألف شخص.

---

[75] A great book of horrible things (359).

تاريخ الإسلام وحمامات الدم هذه

قامت كثير من المراجع الغربية بحصر الحروب والإبادات البشرية عبر التاريخ وترتيبها حسب أعداد القتلى وقد تتبعت بعض هذه المراجع التي اشتملت على عامة ما أوردناه في هذه الرسالة ولم أجد من ينسب حربًا أو حادثا في تاريخ الإسلام تسبب في مقتل أعداد كبيرة من البشر باستثناء ما ينسب للدولة العثمانية من مجازر في حق الأرمن في أواخر القرن التاسع عشر ، والإبادة الجماعية للأرمن وترحيل اليونان في أوائل العشرين إبان الحرب العالمية الأولى، وهو ما تنكره تركيا الحديثة إلا أننا سنسلم به هنا جدلا كوننا نبني رسالتنا هذه على المراجع الغربية فلا يستقيم أن نقبل ما لنا ونرد ما علينا، ولكن هناك حقيقة تاريخية تغيب عن الكثير وهي أن المتهم في عمليات إبادة الأرمن المتأخرة هو حزب تركيا الفتاة وهو حزب علماني وليس حزبا إسلاميا وكانت تركيا الفتاة حركة تمانع تفرد السلطان عبد الحميد بالسلطة، وعند تأسيس جمعية الاتحاد والترقي ضمت أكثر قادة تركيا الفتاة وهي نفسها الجمعية التي انضم لها مصطفى كمال أتاتورك فقامت بإبادة الأرمن وترحيل مسيحيي اليونان لبواعث قومية وليست إسلامية.

والتأمل في هذا يؤكد ما نقول هنا من أن الباعث الديني ليس هو المحرك لعمليات القتل، بل يتقرر القتل مسبقا فإذا كان الدين سائدا في البيئة يُقتل باسم الدين وإذا أفل الدين وبزغ نجم العلمانية سيقتل نفس الضحايا باسم القومية والوطنية والعرق.

الذي يهمنا الآن أننا نستنتج من هذا العرض بناء على المراجع الغربية أن دول الإسلام المتعاقبة من لدن الدولة النبوية ثم دولة الخلافة الراشدة ثم الدولة الأموية المترامية الأطراف أحد أكبر إمبراطوريات التاريخ ثم الدولة العباسية ثم ما تعاقب من دول في المنطقة الإسلامية لا يعرف تاريخيا أنهم قتلوا أو اقتتلوا أو تسببوا في مقتل أعداد غفيرة من البشر **مقارنة بما فعلته غيرهم من الأمم**.

أما الحادث الذي احتل المرتبة الأولى في دمويته تاريخيا بإجماع المؤرخين فهو الحرب العالمية الثانية وهي حرب غربية لا علاقة للمسلمين بها، وقد نشبت بعد إسقاط الكنيسة في الغرب، وتحييد المسيحية عن الواقع الغربي ، ونشاط مفكري عصور التنوير، وكان عامة قادتها من الملحدين!

فهتلر الألماني رجح أكثر المؤرخين من خلال سيرته الذاتية وشهادات من عرفه وعاشره أنه لاديني، وقد أطنب المؤرخ البريطاني (Richard overy) في ذكر تلك الشهادات في كتابه الشهير(the dictators)= الديكتاتوريون، بينما يرى ريتشارد ويكارت (Richard weick) في أطروحته التي صدرت مؤخرا سنة 2016م بعنوان دين هتلر (hitlers religion) وهي آخر وأوسع ما كتب عن الموضوع بأن الرأي السائد من أن هتلر لا ديني رأي خاطيء، وأن الصواب أنه (ديني) ودينه هو الاعتقاد بقوى الطبيعة وأن قوانين الطبيعة هي الرب!

ويرى المؤرخون أن توظيف هتلر للخطاب المسيحي في شبابه كان لمصالح سياسية محضة حيث كانت الكاثوليكية لا تزال لها شعبية في المجتمع الألماني[76].

---

[76] *Hitler 1936-1945 Nemesis*;by Ian Kershaw, WW Norton & Company; 2000; pp.39-40 & *Hitler: a Biography*; Norton; 2008 ed; pp. 295–297

وجوزيف ستالين الروسي الماركسي هو الذي دعا إلى الخطة الخماسية للإلحاد! في روسيا ما بين 1932–1937م للحد من التواجد الديني في الاتحاد السوفيتي.[77]

وموسوليني الفاشي الإيطالي كان معروفا بإلحاده[78] وقد ألف رسالة في شبابه بعنوان : لا وجود للإله[79] God doesnot exist

وتشيرتشل البريطاني المعروف بداهية الحرب يرى عامة المؤرخين أنه كان ملحدا أو لا أدريًّا، وأن انتسابه للمسيحية انتساب اسمي[80].

فلنكن على ذكر إذن من هذا الصراع الإلحادي الإلحادي الذي كلف البشرية 80 مليون قتيل وعشرات الملايين من الجرحى والقتلى والمشردين.

---

77. A History of Soviet Atheism in Theory, and Practice, and the Believer, Dimitry V. Pospielovsky, vol 2: Soviet Antireligious Campaigns and Persecutions, St Martin's Press, New York (1988)

78 "Nationalism and Culture" by Rocker Rudolf (1998) New York .

79 Mussolini.by Neville P (2004). Routledge.

80 *The Last Lion: Winston Spencer Churchill: Defender of the Realm,by* Paul Reid's

كيف نستطيع تفسير العنف الإنساني

حاولت أن أحاجج في الصفحات السابقة وقدمت أدلتي على ما أراه حقيقة تاريخية وهي أن (القتل وكل ما يدور حول معناه من الدماء والعنف والجريمة):

أ: مرتبط بوجود (الإنسان): فوجود الإنسان هو العنصر المشترك في كل قصص الدماء التي سفكت عبر تاريخ البشرية.

ب: ويكون هذا (في لحظة ارتكاسة حيوانية للإنسان سببها غالبا شهوة الاستيلاء على ما ليس له فيصبح كائنا دمويا بامتياز وتزداد دمويته عند تواطؤ مجتمع أو مجموعات بشرية كأمة من الأمم على غايةٍ ما) حينها يخلع الإنسان/ المجتمع/ الدولة/ الأمة/ ثوب الإنسانية ويلبس ثوب الحيوانات التي تخضع لقانون البقاء للأقوى.

ج: عندما ترتكس فطرة الإنسان/المجتمع/ الأمة ويقرر سفك الدم الحرام يبحث عن (مقدس) يحاول أن يبرر فعلته به، يخدِّر ضميره من خلاله، و يسكت بداخله صوت فطرته الإنسانية القويمة، من جهة، ومن جهة أخرى ليوحد بهذا المقدس تلك النزعات الحيوانية لمجتمع أو أمة فتنصهر في بوتقة دموية واحدة.

د: هذا المقدس يختلف اختياره وتعيينه باختلاف عوامل كثيرة، كاختلاف البيئة، اختلاف المزاج الشعبي العام، اختلاف العقائد السائدة..إلخ.

هـ: إذا كان المقدس السائد في بيئة ما هو مجموعة من الآلهة، سيقتل الإنسان باسم إلهه المختار من بينهم، وإن كان المقدس هو العقل /الإله سيقتل باسم العقل، وإن كان المقدس هو الدولة/ الإله، سيقتل باسم الدولة الإله، وإن كان المقدس هو الحرية/ الإله، سيقتل باسم الحرية/ الإله وإن كان المقدس هو العرق/ الإله سيقتل باسم العرق، وإن كان المقدس هو القوم/ الإله سيقتل باسم القومية والدفاع عنها، وإن كان المقدس هو إله المسيحيين ابن الله سيقتل باسم ابن الله، وإن كان المقدس هو إله المسلمين سيقتل باسم الله.

وما من قيمة مقدسة أو معنى سام إلا والإنسان الحيواني قادر على توظيفه توظيفًا دمويًّا.

و: ولماذا قيدنا وقوع القتل بلحظة ارتكاسة حيوانية للإنسان؟

والجواب أن صريح القرآن يحدثنا عن أن الإنسان بفطرته السليمة يكره منظر الدماء الإنسانية ولو كان القتال (بحق) فكيف بسفك الدماء المحرمة : ﴿كُتِبَ عليكم القتال وهو كرهٌ لكم﴾.

❁ ❁ ❁

وما هي الدوافع النفسية التي تجعل الإنسان يرتكس إلى حال الحيوان الدموي؟

حاول علماء النفس والاجتماع بل والأحياء الإجابة عن مثل هذا السؤال ولهم فيه نظريات كثيرة، وقبل البدء بسرد شيء من نظرياتهم نحب نحن المسلمين أن نستضيء بنور القرآن حيث يحدثنا عن النفس الإنسانية من هو أعلم بنفوسنا منا، خالقها سبحانه وتعالى.

يصور القرآن مشهد الدماء الأول في حياة أبناء آدم، تصويرا فذًّا، يحرك النفس ويهز الوجدان ويثير الأحزان، هما رجل وأخوه، من صلب واحد، ليسوا هنا من أعراق مختلفة وقوميات متغايرة وأنساب متنافرة بل رجل وأخوه من أب واحد وأم واحدة.

قدم أحدهما قربانًا إلى ربه يقال أنه قدّمه من أجود ماله وأحسن ما لديه، فتقبله الله منه، وقدم أخوه قربانًا يقال أنه من أردأ ماله، فلم

يُتقبَّل منه، ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾.

أثار هذا المشهد في نفس (قابيل) مشاعر الحسد والحقد والبغي والظلم على أخيه (هابيل)، لقد حظي هابيل بنعمة القرب من الله وما سيتلوها من معاني الفوز الدنيوي والأخروي، أما قابيل فلم يحظَ بشيء، استثارت شهوة تمني الاستيلاء على ما عند أخيه (من حظوة عند الله تعالى ونِعم الدنيا والآخرة) صفاتا حيوانية في نفسه من حقد وحسد وغيرة وبغي وظلم، فقرر الانتقام: ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾.

عندها ﴿قَالَ﴾ له أخوه بنفس إنسانية هادئة ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ ينصحه بأن القتل ليس هو الحل، فقط اجتهد في تقوى ربك وسيتقبل منك كما تقبل مني، وستحظى بنِعَم المتقين مثلي، يتمنى له الخير الذي حظي به.

ثم علا صوت إنسانيته وبشريته وفطرته وهو ينادي بأخيه ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾.

ويخوفه من أن سفك الدماء المحرمة هو أقرب الطرق إلى النار وأسوأ علامات الظالمين ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾.

ولكن عندما تسيطر الصفات الحيوانية على النفس الإنسانية تعمي بصرها وبصيرتها ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

في بعض ما يرويه أهل الكتاب مما لا نصدقه ولا نكذبه ، أن قابيل لم يعرف أصلا كيف يقتل أخاه، ففعل كما تفعل الحيوانات أخذ يعضه عضًّا شديدا ويخنقه كما يرى الحيوانات وهي تخنق فرائسها.

وبعد قتله تركه في العراء ولم يعرف أيضا كيف يفعل بجثته، فكان لابد من إرسال (حيوان) آخر يأنفه الناس بطبعهم، يكون أرقى من الإنسان (القاتل)! فيعلمه كيف يواري سوأة أخيه:

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾.

اجتاح قابيل شعور داخلي بانتكاس فطرته الإنسانية إلى أخس درجات الحيوانية وهو يرى بعض الحيوانات وقد فاقه في إنسانيته وهو يدفن أخاه الحيوان:

﴿قال يَاوَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي﴾ ولكن هيهات ينفعه تأنيب الضمير وقد فعل ما فعل ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ .

يقول أهل الكتاب أنه لما جاء إلى أمه يخبرها أنه قتل أخاه، قالت متعجبة: ما هو القتل؟ وكيف يكون؟!

من هذه اللحظة ستنقسم البشرية وستنقسم النفس الإنسانية بين أبناء هابيل الذين يمثلون صوت الإنسان وصوت الفطرة القويمة وامتداد فطرة أبيه آدم الإنسان الذي استخلفه الله في الأرض يحيي به الناس، وبين أبناء قابيل الذين يمثلون صوت الحيوان الذي يصيح في جنبات نفوسنا ويستيقظ في لحظة.

عن أبناء قابيل يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "لَا تُقتَل نَفْسٌ ظُلْمًا، إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا، لِأَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ"

و عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: إِنَّ أَشْقَى أَهْلِ النَّارِ ابْنُ آدَمَ الَّذِي قَتَلَ أَخَاهُ، مَا سُفِك دَمٌ فِي الْأَرْضِ مُنْذُ قَتَل أَخَاهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، إِلَّا لَحِقَ بِهِ مِنْهُ شَرٌّ، وَذَلِكَ أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنّ الْقَتْلَ".

بعد استعراض شيء من التفسير النفسي القرآني لدوافع القتل نستطيع أن نستعرض شيئا مما يقوله علماء النفس.

أما حيوانية هذا الفعل وانعدام الإنسانية فيه فيتفق عليه كثير من علماء النفس، وهو واضح في السياقات القرآنية المختلفة عن القتل ومنها قصة القتل الأول.

أما الدوافع والأسباب فاختلفوا في تفسيرها:

فهناك مدارس مثلا تعيد العنف الفردي إلى شهوة المال فيقتل للاستيلاء على مال الآخر، وتعيده بعضها إلى شهوة النساء فيقتل للاستيلاء على نساء الآخر، وبعضهم إلى شهوة الملك..إلخ.

وعندما نراجع ما قاله أهل الكتاب وبعض المفسرين حول سبب قتل قابيل لهابيل نجد بعضهم يقول أن زوجة هابيل كانت أجمل من زوجة أخيه فحسده لذلك فقتله، ويقول علماء التاريخ أن أكثر القبائل قديما كانت تتقاتل لهذا السبب، الاستيلاء على نساء القبائل الأخرى.

إلا أن التفسير الأشهر أن المال الذي قدمه هابيل وكان شاة كان مالا حسنا، حسده عليه أخوه فقتله، وهناك تفسيرات أخرى.

وأميل إلى أن ثمة حكمة من عدم تناول السبب التفصيلي في النص القرآني، وذلك ليبقى عامًا بلا قيد يدخل تحته كل ما يدور بخلدك من أسباب، فكل ما تشتهيه مما في يد الآخرين ، من مال أو جاه أو ملك أو سلطة أو نساء أو أرض أو زرع أو حظوة عند أب، أو حب لدى الناس أو قبول عند الله..إلخ، إن قررت الاستيلاء عليه بغير حق، وبقتل صاحبه، فهنا تعلو حيوانيتك (حيوانية الشهوة) على إنسانيتك.

نرى هذا على المستوى الفردي في رجل الكهف الأول يخرج للصيد فيرى فريسة حسنة بين يدي صياد آخر فيقتله ليستأثر بها.

ونراه على المستوى الجماعي في عصور الزراعة يرى أهل المدينة مدينة مجاروة يملؤها الزرع والثمر فيقررون الاستيلاء عليها وعلى مواردها.

ونراه على الصعيد الدولي في عصور الصناعة ترى بعض الأمم أمةً أخرى تحاول منافستها فيما أحرزته من تطور صناعي واستئثار بالمواد الخام فتقرر إبادتها! (الحروب العالمية الأولى والثانية مثلا)

ونراه في المنتسبين للعقل ، يرى كل منهم شعبية العقل الآخر في ازدياد فيقرر تدمير الآخر (الفكرة الشيوعية والرأسمالية مثلا).

نراه في كل دم يسفك بغير حق.

ومن التفاسير التي تصب في هذا المعنى على المستوى الجماعة والدولة تفسير (العنف البنيوي).

فهناك مدارس ترى أن السبب الأكبر لسفك الدماء في التاريخ على مستوى الدول والأمم هو العنف البنيوي.

وهو مصطلح صاغه يوهان غالتونغ 1960م ويشير إلى شكل من أشكال العنف الممنهج الذي تمارسه جهة نخبوية تتسبب بالضرر للناس، كالعنف الذي يمارس من قِبل النظام الطبقي تجاه الرعية، أو العنف الذي تمارسه الدولة الأقوى تجاه الأضعف، وباعث هذا العنف في الغالب هو صراع الموارد والسيطرة عليها والاستئثار بها، لا يكون العنف في هذه الحالة مجرد حالة فردية عابرة بل يكون جزءا لا يتجزأ من البنية الاجتماعية والسياسية يضرب بجذوره في أعماق الدولة.

وهو التفسير الذي اعتمدته الكاتبة القديرة كارين آرمسترونج في أطروحتها المهمة (حقول الدم) وهو تفسير قوي نراه حاضرا في أكثر الصراعات التاريخية.

تقول آرمسترونج في كتابها المشار إليه: (لا تكمن المشكلة في الدين إنما في العنف الكامن في قلب طبيعتنا البشرية وطبيعة الدولة).

وتقول: (تُستخدم أحيانا النزاعات الطائفية التي تطورت داخل الأديان لإثبات أن الدين غير متسامح دومًا، كانت هذه العداوات بلا شك مريرة وسامّة، ولكنها هي الأخرى كانت مرتبطة دومًا بأبعاد سياسية).

وعندما نتأمل في الدوافع الفردية للقتل المحرم سنجدها تصب في نهاية المطاف على مستوى الدولة أو الأمة في هذا المعنى.

❁ ❁ ❁

أسباب نفسية أخرى تحرك الحيوان الدموي

الذي بداخل الإنسان

★ترى كثير من المدارس أن دافع القتل هو تقديس الأوامر، تلك التي تصدر من الأمير/ الإله، القائد/ الإله، الرئيس/ الإله.

تتجسد هذه النظرية بوضوح في تاريخ العنف، فقد كان الملوك في الحضارات القديمة يعتقدون - ويعتقد فيهم الناس - أنهم النسخة الإنسانية لآلهة السماء، وكانوا يعتقدون أن أحدهم عند موته ما يزال هناك لكنهم لا يرونه لأنه رجع إلى إلهيته! وإن تواضع بعض الملوك جعل نفسه من سدنة الآلهة فيكون الموت في سبيله أقرب الطرق للفوز برضاهم، فكانوا على استعداد تام للموت في سبيلهم.

واستمر هذا الشعور في الإنسان تجاه الملك / الإله عبر التاريخ الطويل.

في دراسة لـ(إريك كاهلي) عن النظم الشمولية المعاصرة تحمل اسم (البرج والهاوية)، يحكي في بعض فصولها عن مذبحة ارتكبها الألمان بأوامر هتلرية في قرية فرنسية اسمها (أورادور-سورجلان) في يونيو 1944، قام الألمان بفصل الرجال عن النساء والأطفال وأخذوا هؤلاء في ناحية، وإلى تلك اللحظة لم يصب أحد بالفزع، فقد كان الألمان

يلاعبون الأطفال ويضاحكونهم ويداعبونهم، وعند إشارة معينة من القائد قتلوا جميع الرجال أمام نسائهم وأطفالهم ثم أضرموا نارا في الكنيسة وألقوا فيها الأطفال والنساء أحياء!

يقول أحد الشهود الفرنسيين على هذه المذبحة: (أنا متأكد أن أولئك الجنود لم يشعروا بأي كراهية تجاه الأطفال الفرنسيين حين كانوا يحملونهم ويداعبونهم، ولو جاءتهم أوامر عسكرية عكسية سيستمرون في مداعبة الأطفال واللعب معهم).

بكل بساطة كان هؤلاء الجنود تحت تأثير أوامر القائد/ الإله.

*بطبيعة الحال هناك تفسير آخر شهير تتبناه مدارس علم نفس شهيرة، وهي مدارس تعيد كل شر في الإنسان إلى موقف مر به في طفولته، شعارهم (قلب دفاتر الطفولة)، ترى هذه المدارس أن الدافع الإجرامي للقتل هو مركب طفولي يدفع إلى الاستسهال والاختصار، الطفل تتملكه نزعة الحصول على شيء مقابل لا شيء، وإن لم يحصل عليه ملأ البيت بكاء وصياحا.

يرى فرويد أن الطفل ذاتي أناني تماما فلا يتفهم وجهة نظر أخرى، والمجرم ليس إلا شخصا بالغا بسلوك طفل!

وهي مدارس مقبولة في الأوساط العلمية وكلامهم غير مدفوع في الجملة، وكثير ممن مارس الدموية في التاريخ بالتقليب في دفاتر طفولته نكتشف حقا أنه عانى من صدمات في زمن الطفولة كإساءة زوج أم أو تعذيب زوجة أب، أو مشهد دموي..إلخ

إلا أن حصر السبب في موقف طفولي هو ما تبعده مدارس نفسية أخرى ونرى كلامها أكثر منطقية، فارتكاس إنسانية الإنسان إلى حيوانية الحيوان قد تتسبب فيه مواقف أخرى في سن الشباب أو الكهولة، كصدمات الحروب والفتن مثلا التي توقظ الحيوان الدموي الذي بداخلنا.

في 13 ديسمبر 1937م استولى الجيش الإمبريالي الياباني على مدينة (نانكنج) في وسط الصين، وهناك ارتكب الجيش الياباني ما عرف بأبشع المجازر الجماعية في العصر الحديث، اعتقلوا، قتلوا، عذبوا، أحرقوا، واغتصبوا قرابة عشرين ألف أنثى في أشهر حوادث الاغتصاب في العصر الحديث، لمدة شهرين، طالت فظائعهم الجميع عساكر ومدنيين، بعد ذلك كوموا الجثث – قرابة عشرين ألف جثة – وسكبوا عليهم النفط وأضرموا فيهم النيان، كان هناك مئات من الجرحي أحرقتهم النار أحياء.

قدر الجانب الصيني ضحاياه في هذه الحادثة بثلاثمئة وأربعين ألف مواطن.

أما الأطفال فكان اليابانيون يجعلونهم غرضا يتدربون عليهم، ويتنافسون على دقة تصويب الرصاص إلى أجسادهم.

وقف بعض الكتاب عند هذا المشهد وعبر بعبارة مؤثرة لا أنساها ، يقول : (كيف تسنى لهؤلاء الجنود أن يجعلوا أطفال الصينيين غرضا لرصاصهم في الوقت الذي يحمل كل واحد من هؤلاء الجنود صورةً لطفله في جيبه).

★ترى بعض المدارس أن الدافع الأكبر للقتل هو تحقيق الذات ، إثبات البطولة ، البحث عن ألقاب الشجاعة، فاللجوء إلى العنف إذن نابع عن عقدة نقص تستولي على صاحبها عبر تراكمات الحياة الواقعية، فيذهب باحثا عن ذاته بين الدماء، وتسمى هذه النظرية نظرية ال(أنا).

★هناك مدارس في علم النفس ترى أن من الناس من يقتل لمجرد القتل كنوع من التسلية ! وأن كثيرا من ملوك التاريخ كان يغزو الأمم المجاورة لمجرد إشباع رغبته في القتل، وقد صاغ (أندريه جيد) مصطلحا جديدا في بعض رواياته لمثل هذا النوع من القتل سماه (القتل المجاني)، ويترك

نقد هذا الرأي للمتخصصين لكنني أعتقد أن النفس السوية لا تصنع هذا بل لابد من دوافع نفسية تؤدي إلى ذلك، كإثبات الذات والافتخار بالشجاعة في قتل الآخرين.

★ترى بعض المدارس النفسية أن القتل والإبادات الجماعية الدافع نحوها نوعٌ مشوهٌ من الأفكار المثالية تدفع القتلة إلى محاولة خلق عالم أفضل!

وهو كلام صحيح نتفق معه، فأسوأ أنواع القتل والإبادة لا يلزم أن يرتكبها الحمقى والمغفلون بل قد يرتكبها المتمدنون الأذكياء فيتخذون قرارات دموية ولكنهم يخلقون لها المبررات الكافية، فما ارتكبه الأمريكيون في حق الهنود الحمر كان هذا –إيجاد عالم أفضل - هو دافعه الأكبر، وما ارتكبه هتلر في حق أوروبا كان هذا من أهم دوافعه، فقد ارتكب الألمان بعض أسوأ الفظائع في التاريخ وهم يعيشون في أكثر المجتمعات تطورا في أوروبا ووظفوا الثورة الصناعية في عمليات الإبادة لشعوب مجاروة، وما ارتكبه الغرب في حق الأمة الإسلامية كان هذا أيضا من دوافعه.

★تدخل كثير من مدارس علم النفس في سبر وتقسيم أعمق لظواهر العنف والقتل وترى أن كل مجتمع له خصائصه، فالإنجليز يقتلون لغير أسباب الألمان!

★ترى كثير من أبحاث علم النفس أن العنف الموجه للذات (الانتحار) دافعه في كثير من الأحيان فقدان القيمة والمبدأ ، فعندما تكثر المقدسات من حولنا كما رأينا تكون ردة فعل بعضهم مشوَّهة تقضي بعدم الاعتقاد في شيء مما يقدس من حوله، وهذا ليس هو العلاج الطبيعي للإنسان كونه مفطورا على ذلك الشعور بداخله الذي ينادي بأن شيئا ما هنالك أعظم مني ومنك ، عندما يفقد الإنسان هذه القيمة بداخله يفقد القيمة في وجود نفسه هو، فيلجأ إلى الخلاص بالانتحار، ويعد (دوركايم) من رواد هذا التفسير ويسميه (الانتحار الشاذ).

★يرى فرويد وفروم وليكي وغيرهم أن التجمعات البشرية هي سبب العنف، فالزحامات المحتكة ببعضها لابد أن ينتج عنها ردود أفعال عنيفة.

وقريب منهم سارتر الذي يرى أن الإنسان يفضل الوحدة ويرى أن الطبيعة تكون أجمل لو خلت من وجود الآخرين.

والحقيقة أن هذا التفسير من جملة التفاسير الجيدة مع تقييد ذلك بالمجتمعات السلبية الضارَّة، أعني المجتمعات التي تؤذي أفرادها بأي صورة كانت ، أما المجتمعات الواعية فهي تضيف للإنسان ولا تلجئه للعنف.

*هناك عنصر غريزي آخر يرى بعض المتخصصين أنه من دوافع العنف وهو عنصر الكره الغريزي للأغراب، يقاتل الإنسان الغريب عن عرقه عن قومه عن بلده ..إلخ.

*وقريب من هذا التفسير تفسير آخر يعرف في علم النفس بقاعدة (هم) و(نحن).

تقول هذه النظرية أن الإنسان الأول المنفرد، تعلم كيف يشعل النار ويجلس بجانبها يطلب الدفء، فيأتيه الناس من حوله يجالسونه حتى يتعود أهل المكان على الجلوس والاجتماع سويا، وينغمسون في تبادل الحوار، وتحول الحكي إلى فن، وأكثر الحكي يكون عن الصيد والتنافس فيه مع صيادي المناطق الأخرى، ولأول مرة في تاريخ البشرية بدؤوا باستخدام ألفاظ (هم) و(نحن)، تلك الألفاظ التي تطورت إلى الاقتتال بينهم.

ونرى أن هذا العنصر حقيقي ولكنه عنصر جاهلي حيواني في النفس البشرية ، فالله قد خلق البشر في شعوب وقبائل وألسنة مختلفة ليتعارفوا.

★والحقيقة أن النفس الإنسانية بحر عميق لن نستطيع يوما أن نعرف كل مكنوناته فضلا أن نحيط بها ، حسبنا أن نتلمس شيئا من ذلك في ظلمات النفس هنا لمحاولة الوصول إلى شيء من الدوافع النفسية الفردية للجوء إلى العنف والذي يتطور إلى صور جماعية وأممية أكثر دموية وبشاعة.

❁ ❁ ❁

القتال الديني واللاديني

كل هذه الحروب التي نشبت والنزاعات التي استفحلت والدماء التي أسيلت بغير حق عبر التاريخ، لو نظرنا إليها باعتبار الظاهر المحض ستستحق جميعها صفة الحروب الدينية بامتياز، ولو نظرنا باعتبار أعمق ستستحق جميعها اسم الحروب اللادينية بامتياز أيضا!

كل الحروب دينية والجميع يقتل باسم دينه:

فالدين هو مجموعة من العقائد والأفكار اليقينية التي يجزم بها صاحبها ولا تقبل النقاش عنده.

وتكون هذه الأفكار والمعتقدات عنده كدائرة مسوَّرة مَن تجاوزها وخرج عنها كفر وحل دمه في نظره، فمن تجاوز هذه الدائرة سقطت عنه حقوق أهل تلك الملة.

وهل الكفر إلا هذا!

من تأمل في هذه الحقيقة لكلمة الدين، ومدلولها، علم أن الجميع يكفر ثم يقاتل باسم الدين.

في العصور القديمة كانت الوثنية سائدة و الدين هو مجموعة من الآلهة والأحجار والأشجار..

وكانوا جميعا يقاتلون ويقتلون باسم هذه الآلهة..

وكانوا جميعا يسقطون حقوق الأمم الأخرى التي لا تدين لهذه الآلهة باستحلال دمائها وأموالها..

وعندما تم اعتماد النصرانية المحرفة كدين رسمي في أوروبا.. انتقلوا إلى اختراع وثن جديد ودين جديد ونسبوه للمسيح زوراً.. وباسم هذا الدين الجديد المخترع قاتلوا وقتلوا.. واستحلوا دماء المخالفين ولو كانوا ينتسبون للمسيح أيضا..

وعندما قامت الثورة الفرنسية قام روادها بتنحية هذا الدين المخترع في العصور الوسطى واخترعوا هم دينا جديدا سموه دين التنوير أو العقل أو الحرية أو المساواة.. وقتلوا ملايين البشر باسم هذا الدين الجديد..

ونحوا آلهة الإغريق واليونان والرومان تلك التي ترمز إلى الحب والقوة والجمال ووضعوا آلهة جديدة ترمز إلى العقل كميكافيللي وروسو ومونتسيكيو ورواد ما سمي بعصر التنوير..فكانت أصنام وأوثان جديدة.. فقط صُنعت بغير حجارة.. وكان كل من خرج عن دين هذه

الآلهة الجديدة .. أو دخل في عبادتها ثم ارتد..حقه القتل أو التشريد أو الاستعباد.. على أقل الأحوال.

حطموا أوثان أوروبا القديمة واخترعوا هم أوثان الوطنية والقومية والشيوعية والماركسية والرأسمالية.. وكل من خرج عن عبادة هذه الأوثان أو دخل في عبادتها ثم ارتد عنها..كان حكمه القتل أو الاعتقال...

وكل الحروب لادينية أيضًا:

أما بالنظر إلى الدين باعتباره دين رب السماء ، الذي أرسل به جميع الرسل، فإن هذه الحروب كلها تستحق وصف الحروب اللادينية بامتياز.

فمهما يكن من حقيقة هذه الدماء التي أسيلت عبر التاريخ فإن ثمة حقيقة واحدة لا تتبدل ، وهي أن هذه الدماء لا علاقة لها برب السماء، ولا بدين الأنبياء والرسل أجمعين.

ويتفق معنا على هذه الحقيقة ثلة كبيرة من العقول الغربية ، ف(brownowski) في كتابه الشهير (the ascent of

human)[81] يتحدث عن أن نشأة الحروب في الأساس في العصور القديمة كان باعثها الطمع في موارد الأسر والقبائل المجاورة فقط صبغت بصبغة القتال باسم الآلهة.

ويسمي (William cavanaough) عقدة الربط بين العنف والدين (the myth of religious violence) أسطورة العنف الديني في كتابه المهم الذي يحمل هذا الاسم نفسه، وتحدث في قسمه الثاني على أن أخطر ما في هذا الطرح أنه يؤدي إلى عنف مضاد ضد الأمم المتدينة كالعالم الإسلامي.

وترى الكاتبة الشهيرة (Karen armstrong) في كتابها المهم الذي ينصح بقراءته فهو مرجع مهم في الموضوع (fields of blood) : أن التاريخ الديني حافل بالصراع من أجل السلام بما لا يقل أهمية عن الحروب المقدسة، وأن المتدنيين أوجدوا كل الطرق لمحاولة الحد من إراقة الدماء.

وتجادل عن أن العلمانية لم تقدم بديلا مسالما عن أيديولوجية الدولة الدينية، بل قدَّمت أنموذجًا أشد عنفًا.

---

81 Pp 86-88

العالم الإسلامي في حقبة ما بعد الاستعمار

العنف والعنف المضاد

إرهاب الدولة state terrorism

مصطلح الإرهاب مصطلح انفعالي عاطفي فضفاض قد يستخدمه من شاء كيف يشاء، فحواه في الأغلب اتهام الخصم أكثر مما هو توضيح لطبيعة الصراع.

من المحاولات الجيدة لتعريف ظاهرة الإرهاب هي كونها (استعمالا متعمدا للعنف أو التهديد باستعماله ضد الأبرياء مع قصد تخويفهم أو تخويف غيرهم بهم، ببرنامج عمل وأفعال مخصصة لهذا الغرض).

استخدم مصطلح الإرهاب أول ما استخدم في العصر الحديث حسب المتخصصين في عهد الإرهاب الذي أعقب الثورة الفرنسية وقد تقدم الحديث عنه، ثم خفت هذا المصطلح إلى أن برز مرة أخرى على ساحة الكتابات السياسية في أعقاب الحربين العالميتين حيث طرح كثير من رواد الفكر السياسي أن (الإرهاب) ليس خاصا بتنظيمات مستقلة عن الدول كالمتمردين، بل قد تمارس الدولة نفسها الإرهاب في حق الآخرين (كالنموذج الغربي) أو في حق مواطنيها (كالنموذج الشيوعي).

فقد كان هناك إجماع علمي عام بأن بعض أشكال العنف الإرهابي الكبرى ضد المدنيين قد قامت به دول كبرى[82] وليس المجموعات المستقلة أو الأفراد ، ففي الحروب القومية في القرن العشرين فقط قتل مئات الآلاف من المدنيين بالقنابل الحارقة والنابلم، بل قام علماء فيزيائيون تابعون لقوات الحلفاء في الحرب العالمية الثانية بعمل حسابات دقيقة لمزج مواد المتفجرات مع حركة الرياح لتشكيل عواصف نارية مدمرة في المناطق السكنية الكثيفة في ألمانيا واليابان[83].

يقول مايكل ستول (Michael stauhl):

The use of terror tactics is common in international relations and the state has been and remains a more likely an employer of

---

[82] راجع the stratagems of terrorism, by Andrew h. kydd and Barbara f. walter, international security, vol.31, no.1 (summer 2006)

[83] راجع hugo slim, why protect civilians?, international affairs vol.79, no. 3

terrorism within the international system than insurgents[84]

ترجمته: (استخدام التكتيات الإرهابية أمر شائع في العلاقات الدولية وكانت الدول ولا تزال توظف إرهابها في النظام العالمي بأكثر من المنظمات المتمردة).

ويشاركه الرأي مجموعة من رواد الفكر السياسي من أشهرهم نعوم تشومسكي الذي عرف إرهاب الدولة بأنه :

Terrorism practiced by states or goverments and there agents and allies85

ترجمته: (الإرهاب الممارس من قِبل الدول والحكومات ووكلائهم وحلفائهم).

ويعد نعوم تشومسكي مع إدوارد هيرمان (Edward s. herman) من رواد هذا الطرح.

---

[84] The superpower and international terror, Michael stohl, paper presented at the annual meeting of international studies association, Atlanta , march 27 april 1984.

[85] What anthropologies should know about the concept of terrorism. Naom Chomsky.

ونفهم من هذا الطرح أن بعض مراكز القوى العالمية لا توجد فيها منظمات إرهابية لأن الدولة نفسها تكفلت بإرهاب الآخر عبر إرهاب الدولة!

فما ارتكبه البريطانيون سابقا الأمريكيون لاحقا في حق السكان الأصليين للقارة الأمريكية مثال لإرهاب دولة منظّم، وما ارتكبوه في حق العالم كله مما تقدم الحديث عنه مثال لإرهاب الدولة المنظم، وما ارتكبه الشيوعيون في حق العالم مثال لإرهاب الدولة المنظم.

وما ارتكبه نابليون في حروبه إرهاب دولة منظم، ما ارتكبه هتلر في حروبه إرهاب دولة منظم وهكذا.

ونستطيع أن ننسج على منوال التعريفات السابقة مصطلح (إرهاب الأمة) (nation terrorism)، فنحن نرى أن الإرهاب المنظم غير مقتصر على الدول القطرية بل ارتكبت بعض الأمم إرهابا أمميًّا في حق أمم أخرى.

تُعَد حقبة الاستعمار الغربي للعالم العربي والإسلامي وتكالب الغرب كأمة على المسلمين من البرتغال وأسبانيا إلى هولندا إلى بريطانيا وفرنسا إلى أمريكا، مثالا صارخا على إرهاب أمة لأمة أخرى.

إلا أن آلة الإعلام الغربية قامت في السنوات الأخيرة بتغييب مصطلح إرهاب الدولة وتناسي مدلولاته وحقيقته التاريخية، وقامت بتحجيمه وتخصيصه بالمنظمات أو التنظيمات التي لا تدور في فلك الغرب وتلك التي لم تقبل أن تطبخ في قدره أو تركب معه في سفينة النجاة الحداثية لاسيما المنتسبة للإسلام.

ومن جهة أخرى قامت آلة الإعلام الغربية باختزال التاريخ في اللحظة الراهنة التي نعيش فيها، لتوقِعَنَا في مزلق فكري معروف، وهو ما يعرف بالتفكير تحت تأثير اللحظة، أو تحت تأثير الصدمة، أو سمه ما شئت، وهو أن يقوم العقل باجتزاء لحظة تاريخية معينة ويبني أحكامه واستنتاجاته عليها، ولما كانت هذه اللحظة التي نعيش فيها تشهد صراعات دموية في المناطق ذات الأغلبية المسلمة يقوم العقل بهذا الربط.

وهذا مزلق فكري واضح فالعشر سنوات الأخيرة أو الخمسين سنة الأخيرة التي شهدت صراعات في المنطقة العربية هي في تاريخ الزمان لحظة قصيرة، سبقتها أزمنة وأزمنة يحتاج أن يجول فيها المرء بفكره.

ولهذا السبب بنيت عرضي في هذا البحث على فكرة آلة الزمن وأردت أن يتخيل الشخص نفسه وقد وُلد في أثناء الحرب العالمية الثانية والغرب

يتطاحن فيما بينه ويقتل 80 مليون شخص عامتهم من المدنيين، فيما كانت المنطقة العربية آمنة في اللحظة التاريخية نفسها، فكيف سيكون استنتاجه وقتها، وقِس على ذلك.

❁ ❁ ❁

روافد الأحداث الدموية المعاصرة

الرافد الأول للأحداث الدموية المعاصرة:

(إرهاب المستعمر وأدواته)

نتائج إرهاب الدولة الذي ارتكبته الأمم الغربية في حق الأمة الإسلامية

بعد هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى تم إعلان إلغاء الخلافة التي كانت متوفاة أصلا، وتم القضاء على ما تبقى من شعائر الإسلام وعلى رأسها الأذان شعار دار الإسلام ورمز الدولة المسلمة عبر التاريخ وتم إحلال القوانين الغربية بدلا من القوانين الإسلامية في عدد من الدول ثم قسم البريطانيون والفرنسيون وغيرهم التركة العثمانية بينهم وأسسوا انتدابات وحكومات موالية.

وعندما غادر الاستعمار البريطاني والفرنسي المنطقة العربية والإسلامية تركها خلفه مقطعة الأوصال بلا موارد ولا هوية، وبدا كل شيء غير الذي كان.

ولم يكتف بتقطيع أوصالها بشكل عشوائي بل بشكل منهجي دقيق يضمن به بقاء نزاعات الحدود وصراعات الموارد بين الدول الإسلامية والمشاكل المتصلة بحقوق الأقليات وغيرها من النزاعات المزمنة.

ولم يرفع المستعمر عصاه على كاهله ويرحل إلا بعد الترتيب القسري لأوضاع بعض البيوتات العربية الجديدة التي كانت تحت احتلاله بما يخدم مصالحه ورؤيته .

وقد تم الانقلاب في بعض هذه الدول على أصدقاء المستعمر الغربي البريطاني ولكن في مقابل الارتماء في أحضان المستعمر الشرقي الروسي.

كانت هذه هي المرة الأولى في التاريخ الإسلامي التي يفجع فيها المسلمون بمثل هذا التدخل السافر لأمم أخرى في بلدانهم وشئونهم وفي كل الميادين.

بطبيعة الحال لم تكن الدولة التركية العثمانية في طورها الأخير تمثل نموذجا إسلاميا ناجحا لا على مستوى الدين ولا الدنيا بل وتتحمل جزءا كبيرًا من مسؤولية ما آلت إليه الأمور، إلا أن الاستعمار جاء ليقطع شريان الحياة الأخير في جسد الرجل المريض.

وصف أتاتورك يومها الإسلام بالجثة المتعفنة .. كانت إشكالية أتاتورك إذن هو ومن يتبنى فكرته مع الإسلام من جهة كونه دينًا ووحيًا ربانيًّا لا من جهة رفض تدخل الدين في السياسة، أو رفض السلطة البابوية الإسلامية! فإلغاء الأذان مثلا هو إعلان رفض لأعظم شعائر الدين

وأظهرها، فلا علاقة له بفزاعة تدخل الدين في السياسة في قليل أو كثير.

ومن تتبع تاريخ غزو الفكرة العلمانية للعالم الإسلامي على الصعيد الفكري سيجدها بدأت على أيدي مجموعة من المستشرقين الأجانب ثم تلامذتهم من النصارى العرب الذين لا يؤمنون بالإسلام أصلا ، وأن البذرة الأولى للفكرة تكاد تكون منحصرة في اقتلاع الدين كعقيدة وشريعة من الحياة كلها وإحلال كل ما هو غربي ولو كان دينًا وشريعة أخرى.

ومن هذا المنطلق سنطلق في بحثنا هذا مصطلح (العلمانية المتطرفة) على العلمانية التي توظف مقالاتها وأفكارها وقواها المساندة لحرب شعائر الدين وقطعياته والطعن في ثوابته ومعاقد الإجماع فيه وتعمل على إلحاق الأذى بمنتسبيه من جهة تمسكهم بالدين كعقيدة، فلا هي وقفت بالحياد من الدين كما تدعي لنفسها ولا أنها تركت الحرية الفردية لمن أراد أن يصلي أو يصوم أو يزكي أو أرادت أن تتحجب، بل شنَّت حربًا ضروسًا على كل ما له تعلق بالدين بجميع تفاصيله.

هذه العلمانية المتطرفة حكمت تركيا بعد حقبة الاستعمار بفاشية وديكتاتورية سوداء، وحكمت أجزاء أخرى من العالم الإسلامي.

فالعراق آل أمرها إلى حزب البعث العلماني وهو حزب دموي لم يقدم للعراق مشروع حياة بل موت، تصفيات وانقلابات بين الرفاق، ثم تسلم الحكم صدام حسين الذي حكم بالحديد والنار وأدت سياساته ومواقفه الكارثية إلى تدمير بلاده.

وسوريا آل أمرها إلى حزب البعث العلماني الدموي أيضا الذي لم يقدم سوى مشروع الدم المستمر إلى اليوم.

وليبيا آل أمرها إلى نظام القذافي القومي العلماني الذي أدى إلى حالة احتقان ثم انفجار الوضع في ليبيا.

واستمرت العلمانية المتطرفة في مسلسل الدم إلى يومنا هذا، ونلاحظ حضور خطابها بشدة حاليا في الإعلام المصري.

وأردنا من إدخال هذا القيد في المصطلح لفت النظر إلى أن ثمة علمانيات هادئة إن صح التعبير أو مشاريع تتقاطع مع بعض المضامين العلمانية وهي مشاريع أكثر تعقلا وهدوءا من هذه إذ من الخطأ السائد قولبة هذه المشاريع في قالب واحد، ولكن هذا النوع من المشاريع الهادئة ليست

محل البحث والنقاش هنا في قصة الدم التي نحكيها ، فنحن نخصص حديثنا بالبيئات العلمانية المتطرفة التي فرخت وولدت حالة من الاحتقان الدموي والعنف بسبب الممارسات الإكراهية لتغريب المجتمعات المسلمة قسرًا من جهة ، وممارستها حكما فاشيا لا يؤدي إلا إلى حالات الاحتقان المجتمعي ثم الانفجار من جهة أخرى.

نتحدث عن علمانيات حاربت الدين والدنيا معًا ، فلا أنها حافظت على دين ولا أبقت للناس على دنيا !

قد يكون المشروع الغربي في محاربة الدين قد نجح في الغرب ضمن مشروعه الذي أسماه بالحداثي ، إن سلّمنا بأنه نجح أصلا ، فالمشروع الحداثي هو الآخر توجهت له سهام النقد والرفض من داخل البيئة الغربية نفسها.

وسواء نجح المشروع في الغرب أو لم ينجح فإن هذا المشروع الذي حاول الغرب زراعته عبر ذراعه داخل البيئة الإسلامية (العلمانية المتطرفة) — كما تقول كارين أرمسترونج- : (كان بالنسبة لأمم أخرى كالأمة الإسلامية غير ذات معنى ، كان أمرا غير طبيعي ، اختزالي ومدمر).

شعر كثير من المسلمين وقتها أنهم أمام **حرب إبادة لهم أو لهويتهم الإسلامية**.

(وحين يشعر البشر بالخوف من الإبادة –تضيف أرمسترونج- .. يمكن أن يندفعوا إلى العنف).

وليس هو مجرد شعور كما تقول آرمسترونج بل ممارسة عملية ممنهجة.

حاول الغرب أن يقنعنا أن الغرض من هذا المشروع هو حصر الدين في إطار الضمير الفردي.

وواضح أن الغرب والشرق لم يتركونا يوما لضمائرنا الشخصية الفردية ، بل أملوا على ضمائرنا ما ينبغي أن تقول.

فقد تقاسم كثير من الدول الإسلامية الانتماء إلى الشرق الروسي بمنظوماته الماركسية و الشيوعية و الاشتراكية أو الغرب البريطاني ثم الأمريكي بمنظوماته الديمقراطية و العلمانية و الليبرالية ، بالإضافة إلى تعزيز روح القومية أو الوطنية بدلا من الروح الإسلامية.

هي عملية ممنهجة لتشكيل ضمير الأمة إذن ، لا أقل ولا أكثر.

والعجيب أنه في نفس التوقيت الذي كان الغرب يحصر فيه ضمائرنا الدينية في الإطار الشخصي، كان يمكن لدولة دينية بامتياز في قلب العالم الإسلامي (الكيان الصهيوني).

ولا نستطيع أن نلخص دوافع هذا الارتماء للدول العربية والإسلامية في أحضان الشرق والغرب في سطور معدودة إلا أن عامل الانبهار بالغرب كان من أهم العوامل فقد كانوا مدهوشين بما وصل إليه الغرب بعد ما عرف بعصور التنوير من تقدم على جميع المستويات (بالمعايير الدنيوية) ويظهر أنهم لم يلتفتوا لغيرها.

بالإضافة إلى عامل مهم فيما نرى وهو شعور الإحباط الذي تملكهم من سياسات الدولة العثمانية وهي المسماة بالإسلامية والتي لم تقدم في زمن ضعفها شيئا يذكر للعالم العربي على مستوى العدل الدنيوي على أقل تقدير ولا على المستوى الديني الذي تنسب نفسها إليه، فذهبوا ليبحثوا عن شيء من العدل في النتاج الفكري الشرقي أو الغربي، كالمستجير من الرمضاء بالنار!

ومن جانب آخر فقد عرف عن الدولة التركية في عصر ضعفها العنصرية للعرق التركي في مقابل العرق العربي، فعزز هذا في المقابل روح القومية

العربية عند البعض، وروح الوطنية عند الآخرين في مرحلة ما بعد الدولة العثمانية.

المهم أنه في خضم الارتماء في أحضان الفكر الشيوعي الشرقي أوالرأسمالي الغربي وما تضمنته هذه الحقبة من ممارسات العلمانية المتطرفة تجاه أصول الدين وشعائره وكل ما يمت إليه بصلة وتجاه مقومات الحياة الكريمة تبلورت فكرة العودة بنظم الحكم بالدرجة الأولى إلى أحضان الماضي الإسلامي لا الشرق الشيوعي ولا الغرب الليبرالي عند كثير من المسلمين، وهي الفكرة التي حملها أبناء ما سيعرف بالاتجاهات الإسلامية، وفي بعض الأطروحات التي تتناول الجذور الفكرية لهذه الاتجاهات يطلق عليها (الاتجاهات الأصولية = العودة إلى الأصول) وهي نسبة مأخوذة من زمن الصحوة البروتستانتية في أمريكا التي نادت بالعودة إلى الأصول المسيحية بعد صدمتها بضحايا الحرب الأهلية الأمريكية.

وبعد أن تعرفنا على البيئة والسياق الزماني والمكاني الذي ولدت في رحمه حالة العنف المضاد في العالم الإسلامي وفرّخت كل ما سيأتي بعد هذه الحقبة من دماء، سأحاول في الفصول التالية أن أبدي وجهة نظري في حالة الاحتقان والعنف الذي مارسته جماعات تنسب نفسها

لخلفيات إسلامية والتي شهدها العالم الإسلامي في هذه الحقبة إلى اليوم وسأقسم النماذج التي بين يدي إلى مجموعات تمثل كل مجموعة منها رافدا وسببا من الروافد والأسباب التي أدت إلى حالة العنف هذه بناء على رؤيتي.

الجماعات الإسلامية ونظم الحكم

تعد جماعة الإخوان المسلمين أشهر وأكبر الجماعات في العالم الإسلامي التي حاولت تقديم أنموذجها فيما يخص نظم الحكم الإسلامية عبر النداء لأهمية تطبيق الشريعة الإسلامية، وباتت تعرف برائدة (الإسلام السياسي) وتركزت جهودها في هذا الاتجاه.

تأسست الجماعة على يد الأستاذ حسن البنا (1906م-1949م) رحمه الله في مصر وهو البلد العريق فيما يسمى بالحداثة، حيث يرجع المؤرخون بداية عصر الحداثة في مصر إلى زمن محمد علي باشا، الذي استنزف المؤسسات الدينية وفرض عليها الضرائب وحرمها من أوقافها في مقابل تطوير المؤسسات العسكرية والاقتصادية وغيرها، وحارب حركات الإصلاح الديني في العالم الإسلامي كحركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدي مدعوما من الدولة العثمانية الإسلامية!

كان الأستاذ حسن البنا مقتنعا بالتحديث العصري ولكنه يرى أن التحديث لا يمكن أن ينجح إلا إذا رافقه تجديد روحي وديني، وكان ماهرا في التنظيم الجماعي للأفراد واستطاع أن يؤسس لأكبر جماعات ما يسمى بالإسلام السياسي في العصر الحديث.

وعندما قامت ثورة يوليو المصرية 1952م على يد ما عرف بحركة الضباط الأحرار كان الإخوان المسلمون جزءا أساسيا منها، بل يطرحون في بعض رواياتهم أن جمال عبد الناصر نفسه كان منهم.

الرواية الناصرية بعد الثورة تدور حول أن رؤية عبد الناصر كانت جمع كل المكونات والأطياف المصرية في حزب أوحد هو الذي يدير مصر الثورة، وأن الإخوان المسلمين أصروا ألا يحكم غيرهم وزعموا أن عبد الناصر بهذا ينحرف عما وافقهم عليه قبل الثورة من حكم مصر إسلاميًّا، مما أدى إلى محاولة أعضاء الجماعة اغتياله في حادث المنشية الشهير.

والرواية الإخوانية تدور حول تلفيق عبد الناصر لكل هذه التهم لهم لإزاحتهم من المشهد كما أزاح غيرهم.

أدى هذا الخلاف بين الإخوان وعبد الناصر إلى حل الجماعة وحملة اعتقالات واسعة في صفوفهم بعد حادث المنشية الشهير والتي ستهدأ فترة ثم تعود أنشط مما كانت عليه.

لحظة نشأة أفكار جماعات التكفير والقتال في العصر الحديث

في الأثناء داخل السجون المصرية، على وقع سياط التعذيب، وصرخات الألم، وظلمة السجن، والوحدة القاتلة ، جرّد ضباط التعذيب - بشهاداتهم - هؤلاء الشباب من إنسانيتهم وكرامتهم ومن كل شيء.

كانوا يعلقونهم كالخراف ويتفننون في تعذيبهم بما يعجر اللسان عن وصفه ويستحي، يعتقلون النساء لابتزاز المطلوبين ويعتدون على أعراضهن وشرفهن، امتلأت السجون في هذه الحقبة بآلاف المعتقلين، وجوه شاحبة، وأجسام ضامرة، وثياب كأطمار مهلهلة، وسيقان متخبطة تساق إلى حتفها.

تنهال السياط على ظهورهم فيملأ صوت قرع السياط سكون المكان، ثم يختلط بصرخات متقطعة يتلوها هدوء ثم صرخات أعلى.

أنهكهم التعب، أضناهم البؤس، أهلكتهم السياط، ووُئدت داخلهم روح الحياة.

وقائع التعذيب هذه وزوار الفجر هؤلاء شهد عليها نظام عبد الناصر نفسه إبان الانشقاق الذي حدث بينه وبين عبد الحكيم عامر عقب نكسة 1967م، وكان أكثر ضباط التعذيب من رجال الثاني، فاندقع فريق الأول يقر ما حدث في هذه السجون وقُدِّم ضباط التعذيب للمحاكمات، كما شهد عليها إعلام هذه الحقبة متمثلا في الأستاذ محمد حسنين هيكل الذي كرر في كتبه أنه نصح عبد الناصر بتخفيف عمليات الاعتقال فقد بلغ العدد رقمًا قياسيا ، وبدون محاكمات، وشهد عليها ضباط ثورة يوليو ممن اختلف مع عبد الناصر في مذكراتهم، كما ألفت إحدى زوجات ضباط التعذيب مذكرات تفضح فيها زوجها، فليست هذه الرواية رواية المعتقلين بل هي شهادة ضباط التعذيب أنفسهم أو أطراف محسوبين على نظام عبد الناصر، أو محايدين.

بدأت تتبلور في أذهان من بقي في رأسه عقل! من المعتقلين بعض الأفكار المظلمة كظلمة السجن، المؤلمة كوقع السياط على ظهورهم، لم تكن أفكارا مبنية على قواعد علمية حيث لم يحصِّل هؤلاء علما، وكان طليعة هؤلاء يحرمون النظر أصلا في كتب التراث، بل كانت

أفكارا انتقامية بالدرجة الأولى ممن جردهم إنسانيتهم ومن مجتمع – في نظرهم- لم يحرك ساكنا لنجدتهم، وتحت وقع الصدمة وبين أسوار هذه السجون ومن رحم عمليات التعذيب ولدت أفكار التكفير والهجرة والمفاصلة وغيرها.

وضع بذرتها علي عبده إسماعيل ثم رجع ، فحمل الراية بعده شكري مصطفى ، الذي يُعَدُّ المؤسس الحقيقي لأولى هذه الجماعات وكان شابًّا طالبا في كلية الزراعة عاش طفولة بائسة بسبب طلاق أبويه وسوء معاملة زوج أمه له ، الذي طرده من البيت ، ولم يكن شكري مصطفى منضما لأي جماعة إسلامية أصلا ولا يحمل فكرًا معينا بل تزوج أخت عضو في جماعة الإخوان، فاعتقل مع من اعتقل، وعُذِّب مع من عُذِّب.

وكان محبًّا للشعر وينشد شعرا يمتليء رقة وشاعرية ، وقد علقت بذهني أبيات له كتبها لزوجته من السجن يقول فيها :

شكوتُ للنجمِ ظلم الليل أشهده❖وهل درى النجم يومًا شكوة الشاكي

رأيتُهُ ساهرًا مثلي على حدةٍ ❖ فخلته عاشقًا أو ثاكلاً باكي

كلاهما ساهرٌ يشكو النَّوى قلقًا ❖ كلاهما سائر في أرض أشواك

يزور طَيفُكِ بيتي كل آونة ❖ وكلما دق بابٌ فيكِ لبَّاكِ

صفى لقلبكِ قلبي حين خالطه❖ وعشت منه ملاكاً بين أفلاكِ

قتلت سياط التعذيب هذه النفس الشاعرة الرقيقة وملأتها سوادًا ودموية.

انتهجت جماعة شكري سبيل تكفير كل المجتمعات الإسلامية وحكمت على عامة المسلمين بالكفر والردة وحل الدم والمال سوى من انضم له ولجماعته مع اختيار أداة العنف والقتال عاجلا أو آجلا ، ومن انضم له ثم ترك الجماعة فهو المرتد عنده.

نشط كثير من مفكري الإخوان المسلمين ومثقفيهم في الرد على أفكار هؤلاء المنشقين داخل السجون -في نظرهم- عن الاتجاه السلمي الذي انتهجته الجماعة كوسيلة للتغيير، وأُلِّفت في هذا السياق مجموعة من الرسائل الجيدة والكتب التي تَنسِب لهؤلاء الشباب الوقوع في براثين الفكر المنحرف والتكفير الغالي ، ومنذ تلك اللحظة سينقسم رواد الإسلام السياسي والاتجاهات ذات الخلفية الإسلامية الساعية للوصول إلى السلطة السياسية كغاية رئيسة لمنهجها إلى اتجهاين رئيسين (الاتجاه السلمي الذي يسعى للوصول للسطلة السياسية عبر الانخراط في العملية

السياسية واستغلال الوسائل السلمية المتاحة في الدولة وسيرفض استخدام أداتي التكفير والقتال كوسيلة للتغيير) و(الاتجاه القتالي ووقع اختياره على القتال والعنف في سبيل الوصول للسلطة السياسية مع الاعتماد على التكفير كأداة لإسقاط شرعية الحكومات العربية والإسلامية).

وسينشطر كل اتجاه إلى أطياف كثيرة ومختلفة بعد ذلك.

أخرج السادات الجماعات الإسلامية من السجون ولقب نفسه بالرئيس المؤمن واستخدم هذه الجماعات كأداة لإضعاف التوجه الاشتراكي والشيوعي والنفوذ الروسي في مصر الذي ورثه عن عبد الناصر، ثم استبدله بالنفوذ الأمريكي، هذه الجماعات التي سيزج بها مرة أخرى داخل السجون بعد معاهدة كامب ديفيد مع الكيان الصهيوني مع سائر النخب في مصر، وداخل السجون سينتقل هذا الفكر إبان هذه المعاهدة المشرعنة للوجود الصهيوني في المنطقة نقلة نوعية وسيقرر بعض أبناء هذه الاتجاهات اغتيال السادات عبر التنسيق مع بعض ضباط الجيش المصري وقد نجحت عملية المنصة الشهيرة في قتله.

سيظهر مصطلح الإرهاب بشدة في هذه المرحلة في أدبيات الغرب الأمريكي في وصف هذه الجماعات وستدخل أجهزة الدولة في مواجهة شرسة مع الإسلاميين في مصر، وقد نجحت في قمعهم إلى درجة كبيرة.

تحليل العرض السابق:

نشأةُ بذرة هذه الأفكار في ظلمة السجون المصرية وترعرعها تحت سياط التعذيب تعكس عاملا مهما في تغذية هذه الأفكار لدى الشباب وهو فقدان قيمة حياتية عظمى وهي (الحياة الكريمة).

إن كان هؤلاء الشباب غادروا هذا السجن بعد ذلك فإن السجن لم يغادر أرواحهم، وإن سلموا من سياط التعذيب فإنهم لم يسلموا من سياط الأوضاع السياسية والاجتماعية المتدنية.

نحن نتحدث هنا عن فقدان الحياة الكريمة بأية معايير إسلامية كانت أو غربية، فكثير من هؤلاء الشباب كل حلمه أن يعيش حياة كريمة في بلاده يصلي بلا خوف، تتحجَّب بلا سخرية، يقرأ القرآن بلا وجل، لا يُرد من أمام بوابات الشركات الكبرى وهو يحمل في يده مؤهلاته المميزة لمجرد أن مظهره لا يليق، ولا يرفض توظيفها مع تخرجها من جامعات كبرى لمجرد أنها منتقبة.

بل حتى من لا يعتني بالإسلام وشعائره..مجرد فقدانه لأقل مقومات الحياة الكريمة من مأكل وملبس وبيت مناسب في بلاده، هذا كفيل بشحنه ودفعه في أي اتجاه ليفرغ هذه الشحنة التي بداخله ولو بتفجير نفسه، وكم سمعنا عن عمليات تنسب لهذه الجماعات ثم بتتبع سيرة الانتحاري نعرف أنه كان لا يصلي ويرتاد الديسكوتيكس في الدول الغربية!

قد تتعجب إن علمت أن ممن شارك في التنسيق لعملية اغتيال السادات حسب مذكرات وشهادات من تبقى من المنفذين ضابط مسيحي! نعم ضابط مسيحي رأى أن السادات أفقده حياته الكريمة كمواطن مصري، وأفقده كرامته كمواطن عربي يعبث الصهاينة في وطنه العربي الكبير.

لطالما جالست شبابا منتسبا لهذه الجماعات لمناقشته فكريا ثم أكتشف أنه لا يتبنى أية منظومة فكرية أصلا ، بل تسيطر عليه مشاعر الإحباط من واقعه وغربته فيه.

لا أنسى صديقا لي كنت أتعهده بالزيارة والنصح فقد كان لا يصلي ويصادق الفتيات ولا يهتم بأي شعائر دينية على الإطلاق وكان ممن أحرقتهم نار البطالة والفراغ حيث لم يجد مصدر رزق يقتات منه ،

ذات صدفة علمت أنه غادر إلى العراق، وذات صدفة أيضا علمت أنه قد فجَّر نفسه واستراح من كل شيء.

الجيل الثاني لجماعات العنف

فجأة سيتوقف قمع هذه الجماعات التي سماها الإعلام إرهابية، وسيتوقف كل شيء، وفجأة أيضا سيُجهز إرهابيو الأمس ليكونوا مجاهدي اليوم!

وفجأة لن تصبح جماعة التكفير في الإعلام الأمريكي إرهابيين! بل سيصبح هؤلاء في إعلامهم (المجاهدين).

احتلت روسيا - العدو اللدود للنفوذ الأمريكي- أفغانستان داعمة للأحزاب الماركسية هناك فأعلن المسلمون جهاد الروس وحلفائهم، وقامت الولايات المتحدة الأمريكية وأجهزتها الاستخبراتية وحلفاؤها بدعم هذه الجماعات (إرهابيي الأمس) وتجييشهم من كل مكان في العالم العربي بغرض ضرب المعسكر الشيوعي على تلال أفغانستان، وقاموا بتمجيدهم وتلميعهم في الإعلام الأمريكي وكانوا لا يسمونهم إلا بالمجاهدين (mujahedeen)، وملأ هذا الاسم الإعلام الأمريكي بأدواته المختلفة، وخطب بعض قادة جهاز المخابرات

الأمريكية خطبًا تحفيزية في بعض المجاهدين هؤلاء، وهي خطب مصورة مشهورة.

بحلول عام 1984م كان المتطوعون يأتون بأعداد غفيرة من كل أنحاء العالم الإسلامي.

تحدث رونالد ريغان وقتها عن الحملة الأفغانية بأنها (حرب مقدسة) في خطاب ألقاه أمام الجمعية الوطنية للإنجيليين، ووصم الإمبراطورية الروسية بإمبراطورية الشر، وأنها سبب (الخطيئة والشر الموجودان في العالم)، قال: (ونحن لدينا الكتاب المقدس والمسيح لنقاومهما بكل ما نستطيع)[86] بهذا الخطاب الديني كان يدعم ريغان الجهاد المسيحي الإسلامي المقدس ضد روسيا، وكان مدير السي آي إيه وقتها ويليام كاسي (William casey)كاثوليكيا مخلصا.

دعمت أمريكا الجهاد وقتها بحدود 600 مليون دولار سنويا.

---

[86] راجع الكتاب المهم Andrew preston, sword of spirit, shield of faith; religion in American war and diplomacy,(new York Toronto anchor books,2012), p. 585

استطاع المجاهدون طرد الروس من أفغانستان وإن كان كثير من المتخصصين في الحرب الأفغانية يرى أن الأفغان العرب لم يكن لهم ذلك التأثير في هذه النتيجة .

بعد هزيمة الروس وانسحابهم وسقوط المعسكر الشرقي الشيوعي على إثر ذلك ، تحوَّل مجاهدو الأمس فجأة أيضا في الإعلام الأمريكي إلى إرهابيي اليوم ، وصاروا في مرمى أهدافها الرئيسية.

أما دولهم التي دعمتهم وأرسلتهم لنصرة الإسلام! فقد أودعتهم بجميع مشاربهم وراء الشمس!

بعدها بقليل ستقع أزمة الخليج الثانية (غزو العراق للكويت) وتشارك القوات الأمريكية في تحالف دولي لضرب العراق، وستكون هذه الحادثة منعطفا مهما في خطاب جماعات القتال التي -حسب روايتها- عرضت أن تقوم هي بدفع العدوان العراقي دون استعانة بالأمريكان.

رسميًّا سينفض الحلف القائم بين جماعات القتال وبين الدول العربية التي دعمتهم بالأمس.

وستعلن هذه الجماعات قتال العدو القريب عمليًّا[87] (الحكومات العربية وعلى رأسها السعودية) لاستعانتها بأمريكا في أزمة الخليج ، على الرغم من أن **هذه الجماعات نفسها تحالفت مع أمريكا بالأمس وقاتلت بأسلحتها ونسقت مع مخابراتها في أفغانستان ولولا الدعم الأمريكي لما صار لها ذلك زخم ولما حسمت الحرب سريعًا!**

بعد ذلك بفترة يسيرة ستبدأ عمليات التطهير العرقي لمسلمي البوسنة على يد القوات الصربية وجيش يوغوسلافيا، في خريف 1992م، بقيادة ميلوسوفيتش على مرأى ومسمع من العالم.

الجيل الثالث لجماعات العنف

بعد سنوات ستحتل أمريكا العراق - بعد فرضها لعقوبات على العراق تسببت في وفاة مليون عراقي- باحثة عن أسلحة دمار شامل!، في مهزلة عالمية جديدة، قامت أمريكا بتدمير العراق وتشريد أهله وهتك أعراضه على مرأى ومسمع من هذا العالم البائس الذي نعيش

[87] أدبيات قتال العدو القريب نظريا لم تكن وليدة هذه اللحظة بل ولدت في السجون المصرية.

فيه، حيث قاموا بتصوير شيء من مآسي التعذيب التي ارتكبوها في حق العراقيين كربطهم عرايا كما تربط الحيوانات ، ونشرت مقاطع لتعذيب واغتصاب العراقيات، بالإضافة إلى مقاطع لتبول الجنود على القرآن الكريم.

أوجدت أمريكا بيئة دموية في العراق فرخت كل ما هو سوداوي وكل ما هو دموي في هذا البلد، وفي هذه البيئة الدموية التي صنعتها أمريكا ستدخل جماعات التكفير والقتال في طور دموي جديد على خطا دموية أمريكا وإن لم ترتقِ لها، وينتهي هذا الطور بإنشاء ما يسمى بتنظيم الدولة الإسلامية.

وفي مقابل التقسيم الأمريكي للعالم على يد بوش الابن إلى قسمين: حلفاء أمريكا وهم معصومون الدم والمال عنده، ومن ليس من حلفائها وهو حلال الدم والمال والعرض وستطاله يد الحرب على الإرهاب حيث كان، هذا التقسيم النابع من انتماء صاحبه إلى المحافظين الجدد الذين يصفون نظامهم أنه قائم على الإيمان، ويتطلب الولاء التام لمذهبهم، ولا يسمح لأحد في العالم بأي انحراف عن الخط العام[88].

---

[88] راجع paul rogers: the global war on terror and its impact on the conduct of war, in George kassimeries ed, the

قام تنظيم الدولة بدوره بتقسيم العالم الإسلامي إلى قسمين: من يقف معه مبايعا له فهو المسلم ، ومن لم يبايع فهو الكافر، وهو تنظيم يظهر فجأة ويختفي فجأة بناء على رغبات دولية ربما، كخليفتهم الذي يصحو فجأة ثم يموت فجأة ثم يصحو مرة ثانية ويموت ثالثة وهكذا دواليك.

قبل غزو العراق بسنوات يسيرة وأثناء فرض العقوبات على العراق ، سئلت مادلن أولبريت سفيرة إدارة بيل كلنتون في الأمم المتحدة : (لقد سمعنا أن نصف مليون طفل عراقي قد ماتوا وهذا عدد كبير يفوق قتلى هوريشيما ؟ أجابت أولبريت إجابتها التي لم تغب عن ذاكرة العالم: (حسنًا نحن نعتقد أن النتيجة تستحق ذلك)[89].

تحليل حالة الجيل الأفغاني والجيل العراقي من جماعات القتال:

لاحظنا أن أهم تنظيمات التكفير والقتال تنشأ كل مرة عقب تدخل سافر للقوى الغربية في العالم العربي والإسلامي، تتدخل القوى الغربية وتدمر وتقتل وتغتصب وتشرد وتبيد فتشتعل العواطف

---

barbarization of warefare, (London; hurst and company, 2006) p.188.

89 راجع hiltermann, a poisonous affair: America Iraq and the gassing of halabja (uk Cambridge university press 2007) p.243.

الإسلامية وتُشحَن شحنا موجهًا في اتجاه مصادمة الحكومات العربية وتدعم القوى الغربية هذه المنظمات بالعتاد والسلاح لمواجهة الحكام المرتدين في نظرهم ثم تدعم الحكومات العربية من جانب آخر لقتال الإرهاب ! !

لاحظنا أن هذه الحقبة كلها بدأت على إثر إرهاب الدولة المنظم الذي مارسته فرنسا وبريطانيا في حق العالم الإسلامي بعد سقوط الدولة العثمانية والذي كلف المسلمون في جبهة واحدة فقط وهي الجبهة الجزائرية مليون قتيل.

ولاحظنا أن أولى العمليات الكبرى لهذه الجماعات هي عملية (اغتيال السادات) جاءت عقب التدخل الأمريكي لتثبيت وشرعنة وجود الكيان الصهيوني في قلب العالم الإسلامي، وقد كانت عملية اغتياله محل ترحيب حتى بين الاتجاهات اليسارية.

ولاحظنا أنه مع الجريمة الروسية في حق أفغانستان ثم التدخل الأمريكي في أزمة الخليج دخلت هذه الجماعات في طورها الثاني.

ولاحظنا أنه مع الجريمة التاريخية التي ارتكبتها أمريكا في حق العراق دخلت هذه الجماعات في طور ثالث.

ثمة تلازم تاريخي هنا لا ينفك بين كل تدخل سافر دموي للغرب في العالم الإسلامي وبين دخول هذه الجماعات في طور جديد أشد عنفا من طورٍ سابق.

لطالما جالست شبابا لمناقشتهم ولطالما طُلب مني مناظرة بعض المتأثرين بهذه الأفكار فأجهز عدتي وأتسلح بمعلوماتي ومقروءاتي المتنوعة في نقاش أفكار التكفير ، وعند مجالستهم أكتشف أنهم لا يتبنون أية منظومات تكفيرية ولا شيء ، فقط يبادرونني بهتافات من نوعية وكيف نصنع بما فعلته أمريكا بأفغانستان، وكيف ندافع عن إخواننا في العراق من بطش أمريكا إلى آخر هذه المضامين التي تدلل على ما نقول.

لا أنسى صديقا آخر بنفس مواصفات صديقي الأول لا يعتني بشيء من شعائر الدين ولكنه عقب مشاهدة فيديو تداوله الجيش الأمريكي لعمليات اغتصاب لأخواتنا في العراق متفاخرا متباهيا بفعلته، قرر أن يغادر إلى العراق لعله ينقذ أختًا له قبل أن تمسها يد أحدهم، وقد كلفه قراره هذا بعد عودته عدة سنوات في السجن.

❁❁❁

نماذج من المجموعة الثانية

الإسلام السياسي (السلمي) يصل إلى السلطة

ذكرنا أنه داخل السجون المصرية تبلور فكران رئيسيان للجماعات الساعية للوصول إلى السلطة السياسية في العالم الإسلامي (الاتجاه القتالي- والاتجاه السلمي).

الاتجاه القتالي رأى أن المشاركة في منظومات الحكم الغربية شيوعية كانت أو رأسمالية ماركسية أو علمانية كفر ورَدّة عن الدين، وقرر أن يسير في اتجاه القتال والعنف والتفجير والاغتيال، وقد تحدثنا في النماذج السابقة عن تطورات هذا التوجه وملابساتها وحلّلنا شيئا من دوافعها وبواعثها ومحركاتها باختصار.

وسننتقل هنا للحديث عن الاتجاهات السلمية.

رأت الاتجاهات السلمية في المنظومة الديمقراطية وغيرها من المنظومات الغربية وسائل مشروعة للوصول للسلطة بشكل سلمي وحاجحت عن رأيها في أدبياتها مما ليس هنا موضع التوسع في إيراده.

كوّنت هذه الاتجاهات أحزابا سياسية في كثير من الدول الإسلامية وشاركت في انتخابات مجالس الشعب والشورى وغيرها وسعت للوصول إلى السلطة السياسية عبر صناديق الاقتراع بشكل سلمي لعدم إيمانها بالدماء والعنف، فقد قال لهم الغرب وهو يصدر تجربته الديمقراطية في نظم الحكم وتجربته الليبرالية في أصول الحريات أنها أفضل النظم الإنسانية لجلب العدالة السياسية للعالم العربي، حيث يختار الناس بمحض إرادتهم من يحكمهم، وقد صدقوا ما قيل لهم.

بعبارة أخرى رمى لهم الغرب طُعمَه منتظرا صيده الثمين، وتسابقوا هم إلى ابتلاعه.

الجزائر:

تحقق فعلا ما قاله الغرب لهم، المشاركة السياسية السلمية هي الوسيلة الوحيدة للوصول إلى السلطة وها قد وصلوا..

في الجزائر (1991م) اختار الناس بمحض إرادتهم الجبهة الإسلامية للإنقاذ وهي حزب سياسي إسلامي وفازت في الانتخابات التشريعية بأغلبية ساحقة وفي كل شيء.

فجأة سيكفر الغرب بالديمقراطية والليبرالية والعلمانية وكل شيء نظّر له منذ عهد التنوير، وسيلغي جنرالات الجيش بأوامر فرنسية نتائج الانتخابات وسيقومون بإنشاء مجلس أعلى للدولة بالقوة ويعلنون حالة الطواريء وتمت ملاحقة قيادات الحزب وأتباعه وزجهم في السجون وتعذيبهم وفي مقابل هذا العنف ستكون ردة فعل بعض المنتسبين للحزب عنيفة وستدخل القوى الجزائرية في صدام مفتوح فيما يعرف بالعشرية السوداء ستكلف الجزائر 200 ألف قتيل وخسائر مادية بمليارات الدولارات، وسيظهر مصطلح الإرهاب في وصف أبناء الجماعة التي اختارها الشعب في الانتخابات الديموقراطية!

مصر:

في مصر بعد أحداث ما يعرف بثورة يناير اختار الشعب بمحض إرادته في أول انتخابات نزيهة وحرة في تاريخ مصر القديم والحديث (2012م) التيارات الإسلامية، وعندها سيكفر العلمانيون والليبراليون المتطرفون بكل قيم الليبرالية والعلمانية والحرية التي انتحلوها لسنوات وسيتناول الإعلام المصري الرئيس المنتخب بكل قبيح وسيكيلون له كل أنواع السباب والشتام والاستهزاء والسخرية، وستخرج حشود المتظاهرين تطالب بإسقاطه.

ستسقطه المؤسسة العسكرية على وقع الأحداث وتستولي على الحكم وتسجن الرئيس المنتخب وقادات الجماعة ومنتسبيها في حملة واسعة من التشريد والخطف والقتل وأحكام الإعدام ، وكالعادة وصفتهم بالجماعات الإرهابية.

تحليل النماذج السابقة:

هذه نماذج تتحدث عن نفسها لا تحتاج تحليلا ، من الواضح من خلال العرض السابق أن التطرف العلماني والإرهاب الليبرالي المنظم وتنكر منتسبو هذه الاتجاهات لكل شعارات الحرية والمساواة ،ولجوءها لإرهاب الدولة أوجد بيئة مرضية.

إرهاب متحضر هو، ببدلة وكرفته، وإعلام وأضواء، ودعم غربي وشرقي، ولسان يرطن الفرنسية أو الإنجليزية، يلعب أحدهم دور المثقف على مجموعة من (الغلابة)، فيقوم في الإعلام بدور باني الفكر والوعي، وهي جماعات علمانية متطرفة لا تعرف على الأرض سوى لغة الدم.

من المفارفات الطريفة أن جماعات الإسلام السياسي التي يسميها العلمانيون جماعات إرهابية عندما حكمت مصر في سنتها اليتيمة لم

تعتد على أحد، لم تعتد على مسلم أو مسيحي، مؤمن أو كافر، إسلامي أو ليبرالي، خصم أو عدو قريب أو بعيد، لم تعتد على قطة حتى، أما هؤلاء الليبراليون المتطرفون فقد أحرقوا جثث مخالفيهم أحياء.

الاستبداد، الظلم، البطش، القهر وزد ما شئت من مفرادات وجرائم تدور في نفس الدائرة مما تمارسه العلمانية المتطرفة في حق مواطنين أبرياء، تقتل فيهم روح الحياة، وتطفيء شعاع الأمل، تجعلك ميتا في صورة حي، أو حيا في حكم ميت، ممارسات كتلك ما هي إلا قنابل موقوتة .. بشكل أو بآخر ستنفجر.. وبشدة.

يطرح (ماسلو) في مبحث مهم عن الدوافع البشرية للقتل والعنف، أن الدافع الأكبر وراء العنف هو احتياج أساسي يفتقده من يلجأ إلى العنف.

يرى ماسلو أن احتياجات الإنسان تدور حول (احتياجات فسيولوجية) الطعام والشراب، (احتياج الأمان) أن تشعر أنك آمن حيثما كنت، (الإحساس بالانتماء) لكيان أكبر كوطن أو أمة، والإحساس بالتقدير من الغير...

الإنسان عندما يجوع تسيطر على نفسه تخيلات الطعام والشراب، وعندما يفقد الأمان يتخيل نفسه في مكان آمن، ولكن عندما يفقد كل احتياجات الإنسان تلك التي سلبتها العلمانية الفاشية المتطرفة من مجتمعاتنا، فإنه لا يفكر إلا في الانتقام من نفسه ومن كل شيء.

يعيش كثير من أبناء العالم العربي والإسلامي أزمة اغتراب، يفتقدون قيمة الانتماء إلى الوطن، قد يكون الاغتراب جسديا أحيانا، وقد يكون معنويا أحيانا أخرى وهو أقسى على النفس، يشعر المرء باغتراب نفسه داخل مكان قيل له أنه وطن.

يمشي في طرقات وطنه بلا أمل، ويراقب وجوه الناس في غير اكتراث، ويدلف في أزقته بلا شعور، فقد قتل الوطن فيه الشعور، ووأد فيه كل ما هو جميل.

يعبر علماء النفس عن قاعدة الفقد والحرمان بقولهم: (العنف رد فعل لحرمان وفقد لا يحتمل).

تحت منصة رابعة ستراق الدماء وستحترق الجثث وسيعلو الصراخ والعويل ثم يهدأ كل شيء.

وتحت وقع الصدمة من كل ما جرى ويجري سيدخل هؤلاء الشباب في شتات نفسي.

في غمرات الشتات هذه سيكفر بعضهم بكل شيء في الحياة.. وتخترق موجة من الإحباط النفسي بعض من شهد هذه الأحداث..موجة من الشك في كل شيء.. في قيمة الحياة نفسها!

في غمرة الشتات سيغادر بعضهم عربَة الضحية ويصعد إلى عربة الجلاّد، حيث تحول كثير منهم إلى متطرف علماني يجلد ضحاياه كل يوم.

وفي غمرة الشتات أيضا سيؤمن بعضهم بأن ما قيل في السجون المصرية قبل عقود من أن الوصول إلى السلطة عبر الوسائل السلمية عبث وإهدار للأعمار، وأن تولي الحكم عبر النظم الغربية ضحك على العقول= كان هو الحق والواقع، فيحزم حقائبه وينضم إلى جبهات القتال في أي مكان.

بعد حادثة رابعة بسنتين تقريبا سينشر روبرت وورث (Robert f. worth) كتابه المؤلم[90] (A rage for order, from

---

[90] مع التحفظ على كثير من مواضع الكتاب.

(ثورة الغضب لإيجاد النظام، من ميدان tahrir square to isis التحرير إلى تنظيم الدولة)، والذي يتحدث فيه عن حلم الشباب العربي بدولة يعيشون فيها بكرامتهم بدون استبداد وظلم، إحدى القصص المؤثرة التي تناولها الكاتب بأسلوب أدبي مؤثر قصة مجموعة من الشباب المصري يحتفلون سويا بسقوط النظام المصري بعد ما سمي بثورة يناير، وبعد إجهاض الثورة وفقدهم الأمل في حياة كريمة ستتقاذف أمواج الشتات أبطال القصة إلى شواطيء الحياة المتقابلة المتصادمة، بعضهم سيذهب إلى أقصى اليسار، وبعضهم إلى أقصى اليمين..وذات صدفة ستضعهم الأيام في مواجهة بعضهم، ليقتلع أحدهم رأس رفيقه وصاحبه .. الذي شاركه حلم الحياة يومًا ما.

كئيبة هي القصة..ولكنها تلخص كل شيء!

❁ ❁ ❁

نماذج المجموعة الثالثة

جماعات الإسلام السياسي (القتالي)

أفغانستان:

في أفغانستان بعد نجاح المجاهدين في طرد السوفييت، تحولت بنادقهم وقذائفهم إلى وجوه بعض، انقسمت فصائل الجهاد إلى ما يقرب من عشر فصائل كبرى ، بالإضافة إلى عدد كبير من الفصائل الصغرى، وتناحرت فيما بينها وتقاتلت، ودمرت ما تبقى من بلادها، لقد دمروا ما بذروه في طردهم للسوفيت قبل حتى أن يظهر الزرع أو يأتي وقت الحصاد، كان الجميع يتصارع على الكرسي، وباسم الإله.

العراق:

وفي العراق أعلنت فصائل القتال قيام دولة الخلافة ثم كفَّرت باقي الفصائل القتالية في العراق وسوريا وتقاتلوا فيما بينهم وتحاربوا وتطاحنوا وتبرأ منهم الفصيل الأفغاني وهو الجيل السابق لهم لما لم يبايعوه، وشوهوا الهدي النبوي الظاهر، وشوهوا شعائر الإسلام ورهّبوا الناس منه، ثم تسببوا في تدمير مناطق سنية في العراق، ثم لا شيء!

ومرة أخرى كان الجميع يقاتل باسم الإله.

تحليل هذه النماذج:

لا شك أن جماعات القتال باسم الإسلام تتحمل نصيبها من المسؤولية في قصة الدم التي نحكيها.

تقاتل هذه الجماعات باسم الإله لإزاحة أعدائه –حسبهم- من على كراسي الحكم فإذا خلا الكرسي قاتلوا بعضهم للوصول إلى كرسي الخلافة! وباسم الإله أيضا.

مغرية هي هذه الكعكة – كعكة السلطة – ودونها تسفك دماء وتدمر أوطان، كما شاهدناه عبر التاريخ، وباسم الإسلام.

شُرِّع القتال في الإسلام كوسيلة لإقامة الدول وحفظها وتأمينها، لا ليكون غاية في نفسه، أما هذه الجماعات فتقاتل من أجل القتال.

عقود مرت على نشاط هذه الجماعات ولا شيء.. سوى الدمار.

وليس هذا العامل (إغراء السلطة) هو العامل الوحيد في الفوضى الدموية التي تعيشها الفصائل المسلحة لهذه الجماعات، بل ثمة عامل مهم تحدثنا عنه.

فقد نشأت هذه الجماعات وترعرعت كما حكيناه على مرأى ومسمع ودعم من أجهزة المخابرات الأمريكية، فارتباط أجهزة المخابرات الغربية بهذه الجماعات هو ارتباط يعود للحظة النشأة والولادة فقد ولدت هذه الجماعات في رحم هذه الأجهزة على سفوح أفغانستان، أو بالأحرى استوعبتها هذه الأجهزة بعد ولادتها مباشرة ، وهو ما يجعل كثير من الباحثين وأنا منهم يميل إلى أن اختراق تلك الأجهزة لهذه الجماعات قديم لم ينفك عنها يومًا وهو مستمر إلى هذه اللحظة وعبر كل أجيالهم فقد تكرر مرة أخرى في العراق بعد أفغانستان، حيث يتم توجيه الشباب المتحمس من داخل الجماعة في اتجاه لا ينكأ عدوًا ولا يخدم قضية، وتقوم آلة الإعلام الغربية بتغذية الإسلاموفوبيا عبرها، يدعمها الغرب من جهة ويدعم دول المنطقة لمحاربة الإرهاب من جهة أخرى، وتبقى هذه الجماعات مع أبنائها تدور في نفق مظلم لا نهاية له.

❁❁❁

نماذج المجموعة الرابعة

جماعات الإسلام السياسي السلمي (الصدامي!)

اليمن:

كانت جماعات الإسلام السياسي في نسختها السلمية في اليمن لا يسمح لها بالعمل في ظل الحكم الاشتراكي الشيوعي في الجنوب اليمني والنظام الملكي ثم الاتجاهات القومية في الشمال إلى أن مكّن لهم الرئيس الأسبق علي صالح وأنشأ لهم حزبهم السياسي بعد الوحدة بين الشطرين بهدف تقويض الاتجاهات الاشتراكية في الجنوب.

نشط الحزب وثبت أقدامه على الأرض ونشط في المساجد والجامعات والتجمعات الشبابية، وسُمح لهم بفتح الجامعات والمعاهد والمستشفيات وامتلكوا الشركات والمصانع، وكانوا جزءا من السلطة السياسة مع الرئيس الأسبق لسنوات عدة، ولم يُترَك المجال فسيحا لهم فقط بل ترك المجال أيضا للاتجاهات السنية بعامة.

وبالجملة فالحالة الدينية (السنية) في اليمن كانت الأنشط والأكثر حرية ربما في العالم العربي.

أثناء أحداث ما عرف بثورات الربيع العربي قرر الحزب أن حليف الأمس الذي صنعهم ومكّن لهم وجب خلعه إسلاميا، وكانوا هم قوام هذه الثورة وأكثر الأحزاب تنظيما فيها.

قبيل الثورة كانت الدولة اليمنية في حالة حرب مع الحركة الحوثية الجارودية (شيعية) في شمال اليمن، وكان الحزب في حالة صمت أو دفاع أحيانا عن حقوق الحوثيين الأبرياء، ومع خطبهم الرنانة التي كانت تملأ المساجد في تلك الفترة لم يُسمع منهم ولو توعية يسيرة للناس حول عقائد الحركة الحوثية، فقد كان العدو عدوًّا مشتركًا حينئذ.

في ساحات الثورة التي سيطر عليها الحزب رفعت رايات الحوثيين لأول مرة في صنعاء وفي اليمن كله، وعُلقت صور الخميني لأول مرة، وأعلنوا عن عقائدهم وأفكارهم الدينية لأول مرة ، ونشروا أفكارهم وكتبهم وأعلنوا باحتفالاتهم الخاصة، وكان الحزب يراهم شركاءه في الكفاح والثورة ضد النظام الغاشم، وقبيل الثورة بنصف ساعة فقط لم يكن ليسمح بشيء من هذا في اليمن كله.

لم يكن من الممكن أو المعقول أو يخطر أصلا في بالك أن يُرفع شعار لهم، أو ترفع صورة لزعماء الرافضة في العالم أو يحتفل بالغدير أو عاشوراء.

في ساحات الثورة أيضا علا صوت الاتجاهات العلمانية أو الليبرالية أو الحداثية وتلك كلها لم تكن تعرف في اليمن البلد المحافظ بطبعه إلا في ساحات الثورة، فالمكونات القبلية الشمالية لا تسمح بطبيعة أعرافها بتسلل مثل هذه الأفكار، والجنوب اليمني بعد سنوات من حكم الاشتراكية دخل في حالة صحوة إسلامية عارمة بعد سقوط النظام الاشتراكي هناك.

بعد خلع علي صالح تحرك الحوثيون نحو صنعاء لإخضاعها عسكريا، ورأى علي صالح أحقيته بالانتقام من حلفاء الأمس الذين نقضوا العهد معه وهو من حفظه لهم - في نظره - إلى لحظة الثورة وكان قد جمع قادة الحزب ورموزه في مسجده ورفع المصاحف أمامهم ليجنبوا اليمن ما كان يعلم كل عاقل أنه قادر على إلحاقه به.. إلا هم.

أصر الحزب على موقفه التصعيدي مرتكنا إلى فصيل انشق عن الجيش وبعض القبائل المسلحة فجاء علي صالح مع الحوثيين كطوفان مدمر ينتقم من كل شيء أو كبركان يقذف لهبه بهيستيريا وجنون.

مراكز القوى القبلية والمجتمعية في المناطق الجنوبية والوسطى في اليمن لأبعاد تاريخية شتى لم تتقبل هذا التحرك من مراكز القوى في شمال الشمال.

فدخل اليمن من شرقه إلى غربه ومن شماله إلى جنوبه في أتون حرب أهلية مدمرة أكلت الأخضر واليابس، واقتحم صراعا لا تزال رحاه تدور إلى الآن، كلف اليمن الآلاف من القتلى والجرحى ومليارات الدولارات وهو البلد الفقير، في مجاعة عامة وأمراض قاتلة وفتنة دائمة لا يبدو أنها ستنتهي قريبا، أما الوضع الديني فقد عمت شعارات الشيعة صنعاء وما حولها وتم تجنيد آلاف الأطفال وتربيتهم تربية عقائدية شيعية دموية وعاد اليمن ألف سنة إلى الوراء إلى لحظة خروج الهادي وتأسيسه لدولته الزيدية، وكل المكتسبات التاريخية الدينية العقدية والعلمية التي استمرت لعقود طويلة ذهبت أدراج الرياح في طرفة عين، وفي لحظة مراهقة.

تحليل هذا النموذج:

لا أستطيع هنا أن أبريء جماعات الإسلام السياسي (الصدامي) من المسؤولية في محنة الدنيا والدين التي نمر بها اليوم.

ولست هنا -في سياق الحديث عن قصة الدم- أعمم النقد لجميع فصائل ما يسمى بالإسلام السياسي، ولكنني أخصص حديثي هنا بمواقف الأطياف الصدامية منهم، وبقراراتهم في لعبة الكراسي والعروش، تلك اللعبة الدموية التي صاحبتنا قصتها عبر تاريخ البشرية ولم نر فيها سوى الدم .

لعبة الكراسي والعروش هذه لعبة قذرة، تحتاج أحيانا أن تكون بقذارة الآخرين لتضمن حجز مقعدك فيها.

في لعبة العروش والكراسي .. عندما تقرر المشاركة في اللعبة شيء.. وعندما تختار (الصدام) في سبيل الفوز بالعرش فهذا عالم آخر..آخر تماما.

العلمانيون والليبراليون العرب المتطرفون وغيرهم من آلات الدمار في العالم الإسلامي يمارسون إرهابهم مع سبق الإصرار بدقة ويسعون في هدم الدين مع سبق الترصد بمنهجية كحامل معول أتى إلى حائط وأخذ

يحطمه لبنة لبنة، فتأتي الجهود العلمية والدعوية لتصلح شيئا مما هدموه وتستدرك شيئا مما ضيعوه، ولا يخفى أن ما هدمته الاتجاهات اليسارية في ستينيات القرن الماضي من أصول الدين وشعائره رممته جهود المصلحين في فترة زمنية يسيرة.

أما هذه الجماعات الصدامية في غير بصيرة فحالها في لعبة العروش الدموية كحال طفل أتى إلى أسلاك الكهرباء في منزله يظن نفسه في نزهة تعلو ضحكاته ويصفق بيديه فرحا بتجربة جديدة، ثم يتلاعب بالأسلاك في غير بصيرة فيحرق نفسه ويحرق بيته بمن فيه، وتكون نتائج فعلته أشد كارثية ودموية من الأول.

ادعت هذه الجماعات تجنب العنف والصدام المسلح مع الأنظمة - وأحسبها صادقة- وفاصلت جماعات القتال لهذا السبب، ولكن من المفارقات - لو تأملت — أن المواقف غير المسؤولة لهذه الجماعات كانت من جملة الأسباب الرئيسة في إدخال بعض بلاد المسلمين في صدامات دموية لا تقارن بقليل أو كثير بما ارتكبته جماعات القتال نفسها طوال تاريخها! حسب جماعات القتال هذه أن تفجر سفارة أو تفخخ سفينة أو تغتال شخصية، أما أن تقع فتنة تأكل الأخضر واليابس وتعيد بلادها

ألف سنة للوراء وتكلفها الآلاف من القتلى والجرحى كما تسببت به هذه الجماعات فلا.

يكون الصدام كارثيا هكذا في حالة ما إذا كان لدى جماعات الصدام ظهير مسلح كما هو الحال في اليمن البلد المسلح شعبه بطبيعته، والذي تتجاذب القوى القبلية المسلحة مراكز القوى فيه ، هنا يؤول الصدام السياسي ولابد إلى صدام قتالي وفتنة تدوم.

أما في حالات الصدام التي لا يملكون فيها ظهيرا مسلحا، كالحالة المصرية مثلا والتي خاضت فيها هذه الجماعات لعبة الكراسي واختاروا في النهاية طريق الصدام مع المؤسسة العسكرية المتماسكة وهم لا يملكون ولاء ضابط واحد أو عسكري أو حتى سيكيوريتي في عمارة سكنية!

فأنت هنا أمام حالة انتحار جماعي!

من أعجب شئون قيادات هذه الجماعات أنهم بلعوا طعم الديمقراطية حقا وصدقوا أننا في عرس ديمقراطي كبير، ودخلوا حقل الألغام السياسي بأتباعهم، والسياسة عبر التاريخ كما رأينا هي موازين القوى العسكرية لا أكثر ولا أقل.

فيما يخص لعبة العروش..فإن هذا النوع من القيادات المراهقة تبيع لك الوهم ، وتسلمك إلى المجهول ، تمتص غرضها منك ثم ترميك على قارعة الطريق.

ذكرني صنيعهم بمجموعة أمريكية يعرفون بأعضاء معبد الشعوب (peoples temple) ظهرت 1978م، قام جيم وارن جونز بجمع أتباعه وتحفيزهم وتحميسهم ضد سياسات الدولة والقضايا العامة، وتوسع عملهم وأسسوا منشآت ومؤسسات وخدمات ، كان جونز يخوفهم من عمليات التعذيب في ال (CIA) ومن القتل الجماعي، ومن الإعدام بلا محاكمة، ويحذرهم من أنهم سيوضعون في أفران الغاز، وفي ليلة ما تم إيقاظ جميع الأعضاء من نومهم بشكل مفاجيء وتم إعلامهم بأن عملاء الولايات المتحدة الأمريكية على وشك المجيء لقتلهم، وألا خيار لديهم سوى.. الانتحار!!

شرب جميع أعضاء الجماعة مشروبا سامًّا وجلسوا ينتظرون موتهم، وقتلوا 200 طفل من أطفال الجماعة.

ترك رئيس الجماعة رسالة مفادها (لقد قررنا الانتحار الثوري ! وأتمنى أن يستخدم موتي لتحقيق مزيد من التحرر..لقد قمنا بانتحار ثوري احتجاجا على ظروف هذا العالم اللاإنساني).

جماعات الصدام في غير بصيرة تمارس نوعا من الانتحار الثوري هذا.

حمست هذه الجماعات شبابها لسنوات تقارب المئة وهيجتهم للمعركة وجهزتهم لليوم الموعود ثم لم تزد على تقديمهم قرابين وأضاحي على أرض المعركة الموعودة (كرابعة مثلا)، حالهم كحال من يُسمِّن أضحيته ليذبحها قربانا يوم العيد، ثم صرحوا مؤخرا بأنهم لم يجبروا أحدا على الانضواء في الجماعة !

وفي صنعاء أدخلوا الحوثيين إلى الساحات والميادين ..ثم زجوا بشبابهم في حرب دموية على جبهات القتال لإخراجهم من تلك الساحات والميادين !

كهربوا مجتمعاتهم وخوفوها من التحالفات الصليبية واليهودية التي ستدمر بلادهم ، ولما لم يحضر الصليبيون واليهود لتدميرها، قاموا بتدميرها هم بمناكفاتهم السياسية وصداماتهم المراهقة.

في أيام ما سمي بالثورة صليت المغرب في مسجد مجاور وكان أحد رموزهم وأشهرهم يلقي محاضرة فيه بين أتباعه، وكان من جملة ما ذكر أن الخلافة الإسلامية ستقام وتعلن سنة 2015، ولكنه لم يحدد لأتباعه الوقت بالساعة والدقيقة!.

سنة 2015 هي السنة نفسها التي شُرِّد فيها شباب الحزب من بيوتهم في صنعاء إلى المجهول.

هذه جماعات تبيع الوهم – نعم تبيع الوهم – ستنفق عمرك فيها هدرا وتضيع زهرة شبابك ثم لا شيء.

تبدو لي هذه الجماعات كعرائس الماريونيت، قد يخَيَّل إليك وأنت تشاهد حركتها من بعيد أنها تتحرك بمحض إرادتها، فإذا اقتربت رأيتها معلقة بحبال دقيقة يتلاعب بها أحدهم من وراء الكواليس يلعب بها الدور المنوط بها بعناية، ثم يرميها جانبا.

تحمل القوى الكبرى هذه الجماعات على ظهرها كسيل عرم بكل معاركها الفكرية وانشقاقاتها، تستخلص غرضها منها و تقذفها على حافات النهر، ويَصُبُّ النهر حيث يشاء.

هناك اتجاهات أخرى في المقابل داخل جماعات الإسلام السياسي قررت الموادعة وتجنب الصدام ولكنها توسعت حتى ذابت وذابت معها هويتها.

بعض رواد هذا الصنف عند وصوله إلى السلطة تخلى عن الإسلام كله ، وبعضهم مع أول ترشيح في الانتخابات أعلن أن الشريعة لا يمكن أن تحكم، وبعضهم أعاد تشكيل الشريعة بما يوافق مزاج المنتخب وطقوس صناديق الاقتراع.

بطبيعة الحال ستتشكل فصائل أخرى من فصائل العمل السياسي الإسلامي تقرر إزاحة إسلاميي الأمس علمانيي اليوم هؤلاء عن السلطة حالة وصولهم، وعلى أعتاب الكراسي ستخلع الأخيرة بدورها رداءها الإسلامي.

يخيل لي أحيانا أننا ندور في حلقة مفرغة..

ومع كل ذلك فأنا لا زلت أرى أن المحفز الرئيس والدافع الأكبر لفوضى هذه الجماعات واللاعب المتخفي وراء الكواليس المحرك لعرائس الماريونيت هو القوى الدولية و الجور السلطوي والاستبداد السياسي ، بالإضافة إلى الفجور العلماني في الطعن في مسلمات الدين وثوابته

وقطعياته الكبرى، على المستوى الإعلامي والثقافي، والإرهاب العلماني على المستوى السلطوي، كل هذا هو الذي يعزز ويشرعن وجود هذه الجماعات المقابلة التي تكون في كثير من الأحيان من الجهة التنظيرية أقل ضررا على الدين والدنيا، ويكون منتسبوها في الأغلب من الشباب المخلص.

بمعنى آخر لو تصورنا أن مثل هذه الدول تُحقق لشعوبها أقل مقومات عدل الدنيا، ولو تصورنا مجتمعا واعيا قادرا على تجنيب بلاده الصراعات، ولو تصورنا أن النخب الثقافية العلمانية توقفت عن ممارسة إرهابها المادي والمعنوي وتوقفت عن مهاجمة أصول الدين وقواطعه وأشغلوا أنفسهم بما يعود على مجتمعاتهم بالنفع من خدمات ومصالح عامة، فانشغلوا بالعلوم الحديثة حقًّا التي تنسب العلمانية نفسها لها، وأبدعوا واخترعوا وقدّموا لبلدانهم وأوطانهم.. وثمة علمانيات متعقلة هادئة في بعض بلدان العالم قدمت نموذجا مقاربا.. إلا أن العلماني العربي تدور رسالته حول افتتاح المراقص، والبارات، والديسكوتيكس، وتشويه كل ما له تعلق بالدين، لا أكثر ولا أقل، لو تصورنا ذلك أظن أن فوضى جماعات الإسلام السياسي الصدامي

المذكورة ستخفت تدريجيا من على مسرح الأحداث، وقد تحل محلها تجارب ناضجة.

وأستطيع أن أدلل على كلامي بحالات موجودة في العالم الإسلامي من دول أقامت قدرا جيدا من عدل الدنيا وأزاحت الخطابات المتطرفة في صدام الدين من داخل الدولة ومنظومة الحكم مع وجود مجتمعات واعية في مثل هذه البيئات تظهر تجارب لهذه الجماعات أكثر هدوءا ونضجا وبعدا عن الصدامات.

❁ ❁ ❁

الرافد الثاني لحالة الاحتقان الدموي المعاصر

خلل التنظير

وانتحال التراث الإسلامي

تحدثنا عن الرافد الأول لحالة الاحتقان الدموي في العالم الإسلامي متمثلا في البيئة التي أوجدها الاستعمار الغربي إبان الحرب العالمية الأولى ثم خليفة المستعمر (أمريكا) مع أدواتهم العربية (العلمانية المتطرفة) وهي بيئات لا تفرخ إلا دما.

ونتحدث هنا عن الرافد الثاني المستفاد من بعض ما تقدم وما يأتي.

في الحقبة التي قدَّم الغرب العلماني نفسه للعالم على أنه الغرب / الإله، من خرج عن طوعه لا حرمة لدمه ولا لماله ولا لأرضه، والتي قدم فيها الشرق الماركسي نفس المشروع والفكرة ، أنتج هذا في المقابل داخل السجون المصرية إحياء فكرة الجماعة/الإله، وهي الجماعة المقدسة التي من خرج عن طوعها لا يخرج عن جماعة بشرية بل يخرج عن الإسلام كله.

الجماعة التي أسسها شكري مصطفى داخل السجون المصرية (جماعة المسلمين) كانت ترى أن الأمة المسلمة أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب، وحرموا بناء على هذا الأصل الدراسة في الجامعات والمدارس، كما كفروا الأمة بعد الخلفاء الراشدين أو القرون الأولى كونهم لم ينازعوا الحكام فحرموا أيضا بناءً على هذا الأصل النظر في التراث الإسلامي ودراسة الشرع من خلال كتب أهل العلم، وبالتالي لم يكن شكري مصطفى بحاجة إلى التدليل والمحاجّة عن آرائه وأفكاره ومعتقداته من خلال تقريرات السلف أو الفقهاء الأربعة أو كتب العلماء سلفا وخلفا، بل ما قرره لأتباعه هو الحق والدين، وكفى، والمسلم هو من بايعه على ما يقول وانضم لجماعته، ومن لم يبايع وينضم للجماعة فهو الكافر، ومن دخل جماعته ثم خرج فهو المرتد.

قد يوظف شكري من الناحية التنظيرية المحضة أصولا للتكفير لكنها مختلة على أصول الصحابة والسلف وأهل العلم سلفا وخلفًا.

والأهم من ذلك أنها عند المحاققة لا تقدم أو تؤخر في التكفير عنده، فليست شرطا مؤثرا يدور تنزيل التكفير معه وجودا وعدما، فقد استخدم مثلا أصل التكفير بالإصرار على الكبائر، لكن السؤال: هل بتجنب المسلم عن الكبائر يكون مسلما عند شكري ؟ الجواب: لا،

بل يبقى كافرا ما لم يدخل في جماعته ويبايعه أميرًا، بل من ناقشه واختلف معه حكم عليه بالردة كما في مذكرات صاحبه عبد الرحمن أبو الخير.

هو يستخدم هذه الأصول إذن لشرعنة طرحه وإضفاء بُعد علميّ لأفكاره لكسب أتباع ، وإلا فليست هي مرتكز التكفير الحقيقي عنده.

هذه الأمية الفكرية والعلمية، وهذا المرتكز الحقيقي لمناط التكفير (الامتناع عن مبايعة الجماعة/ الإله) ستصاحب هذه الجماعة وهذا الاتجاه في كل تحققاتها وأجيالها ، من جماعة شكري مصطفى إلى جماعة الجهاد إلى الجماعة الإسلامية، ثم جيل أفغانستان الذي قسم العالم لفسطاطي الإيمان والكفر، وفسطاط الإيمان هو من بايعهم على الجهاد العالمي المقدس وقتال العدو القريب وفسطاط الكفر من لم يبايع ولو كان موحدا مصليا مزكيا، ثم جيل العراق المسمى بتنظيم الدولة الذي كفَّر سائر الجماعات المسماة بالجهادية في العراق وسوريا عندما رفضوا البيعة له.

وقد أوردت هذه القضية في كتابي (مصابيح الظلام) وأكررها هنا، وسأتحدث عنها بتوسع في كتابي (مملكة الرب) لأنني وجدت كثيرا من

المتخصصين في مقالات هذه الجماعات حائرا في تصنيف مقالاتها بسبب تنازلهم عن أصل التكفير بالكبيرة في تحققاتهم المتأخرة، ووجدت بعض الباحثين يعالج هذه القضية علاجا لا يسلم من خلل وسيولة بالحديث عن أن هذه الجماعات تصنف من الخوارج لتوسع دائرة التكفير والقتال عندها وهذا كلام فضفاض فالتوسع والضيق لا يصح أن يكون مناطا للحكم على مشروعية التكفير والقتال أو عدمه ، أبو بكر الصديق مثلا قاتل عامة القبائل العربية المرتدة عن الإسلام والممتنعة عن بعض شعائره فكفر الصحابة من يستحق التكفير منهم وقاتلوا من يستحق القتال وغطت الحروب الجزيرة، فهل يصح أن يقال دائرة التكفير والقتال هذه كانت واسعة ، وإذا اتسعت الدائرة كان خروجا، ينتج أن هؤلاء خوارج !

فالتكفير الشرعي يبقى شرعيا اتسعت الدائرة أو ضاقت، والقتال كذلك، والتكفير غير الشرعي يبقى غير شرعي اتسعت الدائرة أو ضاقت والقتال غير الشرعي أيضا.

ورأيت من ينيط هذا الحكم بأنهم سفهاء أحلام حدثاء أسنان ، وهذا ضابط نسبي عائم، فأنت كما تراهم سفهاء أحلام هم يرونك كذلك !

ومنهم من رأى أن مناط إلحاقهم بالخوارج أنهم يكفرون بالقضية الفلانية والعلانية مما يُعد تكفيرا بغير مكفِّر فيكون كالكبائر، وهذا مسلك قد ينضبط أحيانا وقد لا ينضبط أحيانا أخرى و يستطيعون التملص منه، لأن هذه الجماعات بعد سنوات من المدافعة العلمية من جهة أهل السنة استطاعت أن تلعب على مسائل علمية تكفّر بها الناس، لكنها مسائل لن تعدم أن تجد ما يدلل عليها من منظومة أهل السنة التاريخية نفسها أو أن تلعب على وتر الخلاف فيها بين أهل السنة أو أن تؤولها بسهولة للتدليل على أصولها ، فتثبت مخالفتها من هذه الجهة عن الكبائر المجمع على عدم دخولها في المكفرات.

وفي قراءتي الشخصية لهذه الجماعات لا أرى مدخلا لفهم حقيقة مقالاتها إلا السؤال السابق وربطه بجميع تحققاتهم وسنجد الجواب واحدا بشكل أو بآخر:

هل شكري ومن معه كانوا يحكمون بإسلام من لم يصر على الكبائر؟

الجواب: لا ما لم يبايع له ويدخل جماعته.

هل جيل أفغانستان يصنف المسلم المؤمن الموحد العدل الذي يقف في مواجهة أفكارهم نظريا أو عمليا في فسطاط الإيمان أم الكفر؟

هل تنظيم الدولة يكتفي بتحكيم الجماعات والدول للشرع في الحكم لهم بالإسلام أو بأحكام الإسلام؟

بعد هذا المدخل سيجد الباحث أن جميع تأصيلات هذه الجماعات إما تأصيلات مشتِّتَة عن حقيقة مقالتها ، أو تأصيلات معزِّزَة تصب في هذه المقالة التي هي مناط التكفير على الحقيقة عندهم أو التهاون في الدماء على الأقل ، ولو لم يظهروا هذا من البداية للمريد لكسب أتباع.

كما سيلاحظ أن مجموع أقوالهم الجزئية وضوابطهم التنزيلية في التكفير والقتال تنتج أصلا يقضي بتكفير الموحد المؤمن العدل المجتنب للكبائر غير المصر على الصغائر أو إهدار دمه أو التهاون في ذلك ، وهي مقالة أشد من مقالة التكفير بالكبيرة.

فهم سيخبرون المريد بأنهم يكفرون الحكام لأنهم لا يحكمون بما أنزل الله ، ويحكمون بالقانون الوضعي.

حسنا.. حكم الحاكم بالشرع والحمد لله..

سيبقى كافرا لأنه موال للغرب الكافر..

حسنا أعلن قطع العلاقات مع الغرب..

سيبقى كافرا لأنه لم يدافع عن الدولة الفلانية في مواجهة الغرب..

حسنا .. دافع..

سيبقى كافرا لأنه لم يخرج بعد من الأمم المتحدة.. سيبقى كافرا لأنه لم يعلن الجهاد المقدس.. سيبقى كافرا لأنه وأنه وأنه..

فستكتشف معهم في نهاية المطاف أن هذا كله لا علاقة له بحقيقة مقالاتهم بل هو كافر لكونه لم يبايع لهم ويدخل في جماعتهم..فقط.

وبطبيعة الحال فأذرع الحكام من جيوش وشرط ووزارات وكل ما قام عليه النظام كفار معهم.

وما عدلوه على فكرة شكري مصطفى باستبعاد تكفير الشعوب والمجتمعات ليوهموا أتباعهم، لا يقدم ولا يؤخر، فالخوارج قديما كانوا على مشارب شتى، فمنهم من كفر الجميع كشكري، ومنهم من كفر السلطان وعسكره، وعذر العامة بالجهل، وهذا هو عين مقالة من عدّل مقالته منهم.

ثم العذر بالجهل هذا عذر في ماذا أصلا؟! هل وقعوا في الكفر أو الشرك أو استحلال حرام؟ بل هم معذورون بالجهل عندهم لأنهم لم يبايعوا

للجماعة فوقعوا في الكفر ولكنهم لا يكفرون بأعيانهم إلا بعد البيان أولا بعدم صحة إسلامهم إلا بالخروج عن بيعة السلطان وعسكره والبيعة لهم.

وإذا حدث صدام مع السلطان وعسكره من انضم من المجتمعات المعذورة لعسكر الخوارج كان مسلما وإلا فيكفر أو يهدر دمه على الأقل.

ولا يخفى على الباحث أن التكفير بالكبائر أو الإصرار عليها أهون من تبني هذه المقالة، لأن الوقوع في الكبائر حكم شرعي، أما عدم مبايعتك و انضمامك لجماعاتهم فلا شيء!

ستجد هذا في فكرة شكري وستجده في تصريحات تنظيم الدولة، وتنظيم الدولة كان صريحا في بيان آرائه بكل وضوح، أما الجيل الأفغاني فبسبب كثرة مناقشات أهل السنة له والتقاء الرافد المصري الغالي بالرافد السعودي المنضبط صار أكثر ذكاء في صياغة أفكاره وعرضها، فمثلا عندما نص جيل أفغانستان على أن تنظيم الدولة خوارج! هنا يفهم العامي أو غير المتخصص أنهم معتدلون كونهم يرون أن هؤلاء خوارج لتكفيرهم المسلمين، وليس الأمر كذلك، فهم

يرونهم خوارج لا لأنهم كفروا المسلمين بل لأنهم لم يلتزموا بيعة تنظيم أفغانستان الذي هو (الجماعة المسلمة في الأرض) فهم خوارج عندهم لأنهم خرجوا عن تنظيمهم وأميرهم لا لأنهم كفروا أهل الإسلام وخرجوا عليهم، وسيبقى الحكم عليهم بالكفر لا الخروج فحسب متوقفا فيه إلى لحظة الصدام إن حدث، فهنا سيحكم عليهم أنهم من فسطاط الكفر لأن قتال الجماعة المسلمة قتال لحكم الله في الأرض وموالاة للطاغوت.

أما من دخل في مراجعات لهذه الأصول من منظريهم متأثرا بكمية المناقشات والمناظرات والردود من جهة أهل السنة فمنهم من تراجع عن عامة هذه الأصول ومنهم من رجع عن بعضها وبقي على بعضها ومنهم من رجع عن أصول التكفير ولكنه بقي على أصول مختلة في القتال أو التهاون في الدماء بدون تكفير، فأمثال هؤلاء تحرر مقالاتهم وكلٌّ بحسبه.

وقد توسعت في بيان وجهة نظري في هذه القضية في كتابي (مملكة الرب) واستعرضت هناك مقالاتهم من جيل نبيل البرعي مرورا بشكري مصطفى وجماعته ومحمد عبد السلام فرج ومن معه ثم تنظيرات سيد

إمام والظواهري ثم منظري ما بين الجيلين (الأفغاني والعراقي) ثم منظري المرحلة العراقية.

الذي يهمنا في مبحثنا هنا بيان أنه بعد أن استقرت هذه الأصول القاضية بكفر الحكام والجيوش والمجتمعات والشعوب بشكل مباشر أو غير مباشر في الجذور الفكرية الأولى لهذه الجماعات بناء على الطريقة التي قرؤوا بها القرآن وبعض أحاديث السنة فقط، مع استبعاد التراث الإسلامي لأنه تراث كفار عندهم.

استمرت نفس هذه الأصول عندهم كما قلنا في كل أجيالهم ولكن من جملة التعديلات الشكلية التي أدخلها الجيل التالي الذي رأى عنده ضعفا في المرجعية العلمية مقارنة باتجاهات أخرى في الساحة أنه لم يكتف بنسبة أصوله للكتاب والسنة فقط بل بدأ بانتحال علماء الإسلام وفقهائه.

وهذا التسلسل (الفكرة أولا ثم الانتساب للتراث ثانيا) من أهم ما أردنا تنبيه الدارس لتاريخ نشأة هذه الجماعات إليه : ما هو الأسبق حضورا عند هذه الجماعات؟ الأصول الفكرية أم الأقوال العلمية الدالة عليها.

السؤال بعبارة أخرى: هل قرأت هذه الجماعات التراث ودرست مقالات السلف والأئمة الأربعة المجمع على إمامتهم واستوعبت تركة العلماء العلمية عبر العصور ومن ثم تشكلت لديها رؤية معينة تقضي بتبني هذه الأصول..أم أن أمراءها وضعوا الأصول النظرية ومارسوا التطبيق الواقعي في مرحلة تاريخية كانوا مبتوتين الصلة فيها عن التراث ثم اكتشفوا بعدها أن التراث يقرر نفس هذه الأصول؟!

التدقيق في لحظة ولادة الفكرة ونشأتها وترعرعها في مثل هذه القضية المهمة ينتج تصورا أكثر انضباطا عن مدى مصداقية ما تمارسه آلة الإعلام الغربي وأذرعها العربية من نفس الربط للتنفير من الكتب الصفراء! وتقديم التراث الإسلامي على أنه تراث تكفيري دموي.

وكلما كان التراث أكثر انعكاسا على الواقع الفكري وأعمق تأثيرا على الأمة كمشروع شيخ الإسلام ابن تيمية العلمي رجل كل المعارك الذي أحدث زلزالا في سماء الأفكار وقَلَب طاولة الفكر الغربي والشرقي رأسا على عقب ، أو تجاوز التراث مرحلة التجديد الفكري إلى التغيير على الأرض وإيجاد تجربة واقعية تجسِّد الفكرة كمشروع الشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدي، كان الغرب أكثر ترصُّدا لها وتزداد حساسيته وتتضاعف محاولات إلصاق التكفير به.

والإشكالية الأعمق للغرب مع ابن تيمية هو ما أفرزه فكره من تأطير وتحجيم مجالات التلاقح الفكري الإسلامي مع الفكر الغربي، من خلال تقسيمه المبدع لمقالات الفلسفة الغربية إلى مقالات متعلقة بالعلوم الطبيعية التجريبية والعلوم الرياضية فهذه فيها صواب كثير يستفاد منهم، أما فلسفتهم الإلهية الغيبية ومباحثهم الميتافيزيقية فلا شيء وأننا ببساطة لسنا بحاجة لهم في كل ما له تعلق بديننا، هذا التقرير الذي انعكس على تلميذه ابن القيم الذي كان يسمي فلسفة الغرب الإلهية بكل اعتزاز بثقافته: زبالة أفكار اليونان!

لم يرق هذا المشروع للغرب الذي أراد أن ينصِّب نفسه وصيًّا على عقولنا في كل المجالات.

والإشكالية الأعمق للغرب مع تجربة الشيخ محمد بن عبد الوهاب تكمن في أنه استطاع تحقيق الثنائية المستحيلة في نظر غرب ما سمي بعصر التنوير، ثنائية (التجديد الديني بالعودة إلى الأقدم + إقامة دولة منافسة حديثة (بالنسبة لمعايير البيئة النجدية) ترتكز في وحدة نسيجها الاجتماعي على التوحيد الإلهي وفي منظومة الحكم على الشرع) كان هذا الذي يفعله ابن عبد الوهاب على الأرض يفعله في نفس اللحظة التاريخية التي كان الغرب يقرر فيها استحالة مثل هذا!

ولّد هذا شيئا كالعقدة النفسية ! في العقل الغربي ، فالعقلية الغربية الحديثة تسيطر عليها الفلسفة التجريبية فالتجربة الناجحة الملموسة المحسوسة على الأرض هي التي تبرهن على صحة الفكرة.

ولسان حال ابن عبد الوهاب ومشروعه : هانحن نقدم تجربة واقعية على الأرض أثبتت نجاحها تقضي على أصل الفكرة التي قام عليها عصر التنوير كله (فصل الدين عن أي شيء لينجح) بالخلل والسقوط !

وفيما يخص ابن تيمية وابن عبد الوهاب يحتاج الباحث المتخصص في مقالات جماعات التكفير والقتال التي حاولت انتحالهما مع جملة ما قامت بانتحاله من تراث العلماء أن يسأل نفسه إلى جانب السؤال السابق سؤالا آخر: متى كانت لحظة ظهور التراث التيمي والنجدي في البيئة المصرية، هل كان سابقًا لمرحلة ظهور هذه الأفكار، أم أنه حضر بحضور هذه الجماعات؟ ولا تخفى أهمية هذا السؤال.

فابن تيمية وتراثه كان حاضرا بشدة عبر التاريخ العلمي المصري القديم والمعاصر خاصة على يد الأستاذ محمد رشيد رضا 1925م ومجلته المنار التي نشر فيها آراء ابن تيمية وأفكاره لاسيما في طور رشيد الأخير الذي تحرر فيه من عقلانية أستاذه محمد عبده، وكان ابن تيمية من مرتكزات

خطاب رشيد رضا، وكان للمصريين فضل كبير في طبع تراث ابن تيمية ونشره من خلال جهود محب الدين الخطيب ومطبعته السلفية وحامد الفقي مؤسس جماعة أنصار السنة له دور كبير في هذا أيضا، ومن مواليد مصر محمد رشاد سالم صاحب الجهود الضخمة في خدمة تراثه، والمحدث أحمد شاكر ومعهم الأستاذ محمد خليل هراس لهم أثر كبير في نشر فكر ابن تيمية وشرحه واستمر فضل المصريين على تراثه وأفكاره إلى الآن.

فابن تيمية إذن كان حاضرا في البيئة المصرية العلمية الهادئة قبل ظهوره في أدبيات هذه الجماعات بعقود.

أما ابن عبد الوهاب فيرجع حضوره وحضور تراثه في مصر في تقديري إلى زمن دعوته نفسها وقد نقلت في كتابي (مصابيح الظلام) رسالة مرفوعة إلى الديوان العثماني ترصد التأثر بدعوته وتنص على أن عامة العالم الإسلامي تأثر بها وكان هذا في زمن الشيخ وزمن أولاده.

وقد بدا هذا التأثر داخل البيئة المصرية وعلى المستوى النخبوي واضحا عندما حدث صدام بعد ذلك بين الدولة النجدية ودولة محمد علي باشا وجاء مؤرخ مصر الجبرتي ليؤرخ لهذه الأحداث فلم يستطع أن يخفي

تأثره بالدعوة النجدية وبأحوال أهلها ودعوتهم مع الاستنكار الشديد لصنيع الجيوش المصرية والتركية وأحوالها واستعانتهم بالغربيين في حربهم.

ثم بعد إسقاط الدرعية نُقل كثير من علماء نجد إلى مصر ليكونوا تحت المراقبة وضمان عدم إحياء نشاطاتهم في البيئة النجدية فإذ بهم ينشطون في البيئة المصرية في نشر دعوة الشيخ وهذه حقبة مهمة ومنعطف مهم لم أتوسع في دراسته بعد.

ثم مع حركة الإصلاح في رأس القرن العشرين كان محمد رشيد رضا متأثرا بشيخه محمد عبده ومنهجه الذي يحاول عقلنة الشرع إلا أنه في مرحلة معينة من حياته وقع أسيرا لتراث ابن تيمية ثم لتراث ابن عبد الوهاب ومدرسته وكان من أشد المعجبين بها الناشرين لأفكارها المتأثرين بدعوتها في مصر، وكانت مجلة المنار منبرًا لذلك كله.

استمر إذن الحضور النجدي في البيئة المصرية العلمية الهادئة قبل أن تنتحله هذه الجماعات بقرنين من الزمان تقريبا.

هاتان القضيتان تصلحان إلى جانب التحليل الداخلي للنصوص والمناهج والمقالات في محيطها الزماني والمكاني كمدخل لتقييم قيمة

الربط الذي يقضي بأن التراث الإسلامي وفقهاء الإسلام وابن تيمية وابن عبد الوهاب إذا حضروا في بيئة ما حضر معهما الدم، والحق أن الغرب والعلمانية المتطرفة والأنظمة المستبدة المرضي عنها غربيا هي التي عندما حضرت حضرت معها هذه الأمية الفكرية وأحيت هذا الفكر الميت وفتحت علينا حمامات الدم وأجبرت أبناء هذه الجماعات على قراءة تراث الرجلين بله التراث الإسلامي كله مع مصادره هذه القراءة المختلة.

وهناك قضية هامة أيضا وهي رصد آلية ربط هذه الجماعات لأفكارها بابن تيمية والذي كما قلنا كان متأخرا عن ظهور الفكرة، فقد كان هذا الربط مع تأخره ربطا سطحيًّا للغاية، كما نجده عند أحد مؤسسي هذه الجماعات وهو يحكي عن نفسه أنه وقف على رسالة صغيرة لابن تيمية فلما قرأها قرر أنه لا يصلح حال الأمة إلا الجهاد!

نعم كانت هذه الأفكار المختلة حاضرة في التاريخ الإسلامي ولكنها كانت هامشية للغاية لا تكاد تذكر أو تؤثر.

وقد صُنِّفت مجموعة من الأبحاث الجيدة في مناقشة ربط هذه الأفكار بالتراث و بكتابات ابن تيمية ، وشاركت بدوري في كتابة مناقشة لربط هذه الأفكار بتراث ابن عبد الوهاب في أطروحتي (مصابيح الظلام).

كتابات المعاصرين للحظة نشوء هذه الجماعات

إن كانت آلية إقحام الدليل التراثي في خطاب جماعات العنف قد جاء متأخرًا بعد مرحلة صياغة الأصول الفكرية لهذه الجماعات كما وَضَّحناه، فإن ثمة مقالات وأفكارا لم يتأخر إقحامها في خطابها بل ولدت معها منذ اللحظة الأولى، ونسبت هذه الجماعات نفسها إليها من أول وهلة داخل السجون وفي نفس لحظة ولادة أفكارها.

وإن كان التراث قد بقي لقرون في البيئة الإسلامية يفهم بأسلوب علمي هاديء، ثم طرأ الفهم المختل له داخل سجون التعذيب في حقبة الخمسينيات والستينيات بما يخص هذه الأفكار، فإن ثمة كتابات وتأصيلات وأفكارا وُلدت في ظلمة نفس هذه السجون وعلى وقع السياط ذاتها ، وفي نفس هذا الظلام تلقفت هذه الجماعات هذه الكتابات وهكذا فهمتها ثم طبقتها.

نتحدث هنا بطبيعة الحال عن كتابات الأستاذ سيد قطب رحمه الله والتي ولدت في رحم التعذيب نفسه وعلى وقع السياط ذاتها.

من المهم أن نعي أن الشباب الذين صاغوا فكر التكفير والقتال والعنف داخل السجون المصرية في هذه الحقبة هم من نسبوا أنفسهم إلى مقالات وأفكار الأستاذ سيد قطب وهم من ادعى أن ما يعتقدونه ويحاولون تطبيقه هو فكر الأستاذ، وليست هذه النسبة نسبة خارجية من الآخر المحايد أو المناهض للفكرة، أي أن الذي قام بعملية الربط بين كتابات الأستاذ وبين أفكار هذه الجماعات ليس طرفًا مناوئا أو محايدا بل أبناء الفكرة نفسها هم من فعل ذلك ابتداءً.

كان الموقف من هذا الربط داخل السجون المصرية عند مَن دخل في نقاش مع هؤلاء الشباب من جماعات إسلامية أخرى ومنها بعض أبناء ما يسمى بالإسلام السياسي ممن كان يرى انحراف هذا الرأي ومنافاته لفكرة التغيير السلمي الذي انتهجوه على ضربين: فمنهم من كان يرى ويبرهن على أن الأستاذ لم يقصد شيئا من ذلك، ومنهم على العكس كانوا يرون أن الأستاذ تبنى آراء منحرفة تخرج بالشباب عن المسار السلمي، واستمر هذان الرأيان في الحضور إلى وقتنا، فمن مشاهيرهم ورموزهم من ينسب هذا الفكر للأستاذ ومنهم من يرفضه إلى الآن.

هل ربط هذه الأفكار بكتابات الأستاذ سيد قطب له أساس من الصحة والنظر؟ أجبت عن هذا السؤال في أطروحتى الخاصة بدراسة كتابات الأستاذ وأفكاره وآرائه، وأرفقت حججي وأدلتي على رأيي، ولا أرى هذا المختصر يفي بما أريد بيانه وتوضيحه.

الجانب الذي يهمني في هذا البحث بيان بعض المقالات المهمة التي تأسست في السجون المصرية في هذه الحقبة -بغض النظر الآن عن جذورها ومواطن استمدادها- والتي أرى أن لها أثرا بالغا في انحراف هذه التيارات كما لم تسلم بعض تيارات ما يسمى بالإسلام السياسي من بعض هذه المقالات.

هناك خمسة عناصر أساسية ترددت بشدة وبكثرة في السجون المصرية آنذاك :

أ: عنصر (الحاكمية).

أنتج البحث داخل السجون المصرية في الواقع الإسلامي مقالة مفادها أن إصلاح الواقع يبدأ بتصحيح وإصلاح الخلل الموجود في فهم العقيدة الإسلامية فهذا الخلل هو الذي ولّد كل هذا البلاء.

فما هو الخلل إذن؟

الخلل يكمن عندهم في حصر العقيدة الإسلامية في تصحيح التوحيد والتصور والاعتقاد والعناية بالشعائر الإسلامية..إلخ، وبعضهم قد يهون من هذه الأمور وبعضهم لا يهون، ولكنهم يرون أن هذا كله يقوم على قضية كبرى وهي (عقيدة حاكمية الله في الأرض) هذه القضية في نظرهم كالقاعدة التي يقوم عليها ذلك كله، إذا فقدت فلا معنى لتصحيح ذلك كله ولا قيمة أو في أحسن الأحوال تتضاءل جدا قيمة تصحيح العقيدة والعناية بالشعائر عندهم ولا يكون الفرد مسلما حقًّا عند بعضهم، أو لا يكون مسلمًا أصلا عند الآخرين ما لم يصحح عقيدته في حاكمية الله في الأرض، وبالتالي لا يكون المجتمع بما أنه مجموع هؤلاء الأفراد مجتمعا مسلما حقا أو أصلا ما لم يعتقد في حاكمية الله في الأرض.

□العنصر الثاني: (الحركة على الأرض):

- حسنا .. لا بأس.. سيصحح المسلم مع جملة ما صححه من اعتقاده عقيدته في الحاكمية على الأرض وأن التحليل والتحريم والتشريع لله وحده.

- لن ينتهي الأمر عندهم عند هذا الحد وليس هذا ما قصدوه ابتداءً بل عندهم شرط (الحركة على الأرض) ، فتصحيح الاعتقاد لا يكون بتصحيح عقيدة حاكمية الله في القلب وتصحيح التصور في الوعي هذا لا معنى له في نظرهم، بل الإسلام دين عمل وحركة على الأرض ولا يكون تصحيح هذه العقيدة إلا بالحركة والسعي في إعادة حاكمية الله في الأرض عن طريق إزاحة الأوضاع والأنظمة والقوانين الجاهلية.

☐العنصر الثالث: الكيان والجماعة:

- سيترتب هنا سؤال مهم: تصحيح توحيد الألوهية وتصحيح العقيدة والتصور والمحافظة على الشعائر والأخلاق الإسلامية بل وتصحيحه في الحاكمية كعقيدة أيضا في حال التسليم به هذا كله في دائرة مقدور الفرد، ولكن كيف سيتحرك الفرد لإعادة حاكمية الله إلى الأرض؟

-سيطرؤ هنا عنصر (الجماعة) وهي عندهم الكيان الذي لا يمكن للفرد أن يتحرك إلا من خلاله، الجماعة التي سيناط بها هذه المهمة مهمة إعادة الحاكمية إلى الأرض.

ستكون هذه الجماعة (في نسخة جماعات التكفير) هي الجماعة الوحيدة المسلمة على الأرض كونها الجماعة الوحيدة التي صححت

تصورها ثم تحركت على الأرض لإعادة الحاكمية، فلا يسع الفرد تصحيح عقيدته بالتحرك إلا من خلالها.

أو ستكون الجماعة الوحيدة الموكلة حصريًّا بالسعي لتطبيق الشريعة عبر الوسائل السياسية السلمية كونها هي الجماعة الوحيدة الشاملة للإسلام في نظر نفسها بطبيعة الحال (وقد دخلت هذه المقالة على بعض أطياف جماعات ما يسمى بالإسلام السياسي في أجواء مناقشاتهم لجماعات التكفير حيث رفضوا تكفير الآخر ولكنهم أبقوا على فكرة أن جماعتهم هي الجماعة الوحيدة الشاملة للإسلام والساعية لتطبيق الشريعة فيبقى من كان خارجاً منها في درجة أقل وإن كان مسلمًا كونه لم يسع لتطبيق الشريعة ومن خلالهم هم).

العنصر الرابع: (الإعداد)

هذه الجماعة حسب بعضهم لا يصح أن تتحرك لإعادة الحاكمية إلا بعد مرحلة كافية من الإعداد الأخلاقي و العلمي والعقدي إلخ وعلى كل المستويات، وبعضهم لا يشترط هذا، وأنتج هذا خلافات بينهم في المنهج على الأرض.

العنصر الخامس: (الموقف ممن يقف في مواجهة الجماعة)

- وما الموقف ممن لم ينضم للجماعة؟

في نسخة جماعات التكفير: الجماعة تمثل دار الإسلام التي تعصم أموال ودماء أهلها، أما من كان خارج الجماعة من المجتمعات التي تعيش تحت الأنظمة التي لا تحكم بالشريعة حتى ولو سموا أنفسهم مسلمين وحتى لو كانوا موحدين طائعين فهم في دار حرب وبالتالي فلا حرمة فيها لدمائهم وأموالهم كفروا أو لم يكفروا.

وفي نسخة بعض أبناء تيارات الإسلام السياسي: من كان خارج الجماعة مسلم ولكنه يبقى في درجة أقل من أبناء الجماعة كونه لم ينضم لهم ولو كان موحدا عدلا ..إلخ ، ومن تبنى هذا الأصل من أبناء هذه التيارات متفاوتون في هذا بين مضيق ومتوسع، حتى إني سمعت لبعضهم مؤخرا على شاشات الفضائيات: أن كل الثائرين على النظام الفلاني نحن وهم في صف واحد حتى ولو كانوا ملحدين! ومعلوم أن المؤيدين لهذا النظام أو ذاك عامتهم من المسلمين الذي يؤيدونه لسبب دنيوي خارج عن العقيدة والدين، وهذا يعكس خطورة دخول هذه الأصول على بعض أبناء هذه التيارات.

هذه هي المقالات الأساسية والعناصر الخمسة الكبرى التي قيلت في السجون المصرية ثم تشكلت وتأسست وأخذت كل جماعة منها بنصيب.

ونرى في عامتها خللاً علميا وتنظيريا واضحًا، هذا الخلل من أهم ما يؤدي إلى حالة الاحتقان بين الجماعات القتالية التي تقاتل الجميع في سبيل الحاكمية ثم تتقاتل فيما بينها وفي سبيل الحاكمية أيضا، ويؤدي إلى فشل كثير من تجارب أطياف الإسلام السياسي ممن دخلت عليه هذه العناصر، ونلخص بعض الخلل باختصار تام على شرطنا هنا لأننا تحدثنا بتوسع عن هذا كله في أطروحة (مملكة الرب).

أولا: خلل سوداوية التوصيف والتعميم وسيولة الأوصاف وانعدام المناطات:

الخطاب الذي قُدِّم داخل هذه السجون ، خاصة الجانب التوصيفي الذي بُنى عليه المشروع لا يخلو من سوداوية حيث جعلت الدول والمجتمعات كلها جاهلية.

مع أن الدول الإسلامية في زمانهم منها ما فرض عليه الاستعمار تبديل القوانين ومنها دول لم يدخلها الاستعمار ولم يفرض عليها شيئا.

والتي فرض عليها العلمنة منها من بدل القانون كله ومنها من أبقى عليه مع تعديلات تقل أو تكثر.

ومن بدل بعض مواد القانون منهم من قد يظهر منه رفض لحكم الشريعة، ومنهم من زعم أنهم إنما أدخلوا هذه القوانين لحداثة صياغتها وشموليتها لجميع نواحي الدولة الحديثة بالإضافة إلى ضغط المستعمر، وما يخالف الشريعة منها سيعملون على تعديله وضبطه مع الوقت.

وكثير من الدول لم تصطدم بـ(الطاغوت) حسب تعبيرهم لأنها كانت بالكاد تلملم أشتاتها بعد كارثة الاستعمار.

أما المجتمعات فمنها مجتمعات نخر فيها التغريب لاسيما تلك التي احتلها الاستعمار، ومجتمعات بقيت محافظة في الجملة على دينها وتدينها.

والمجتمعات التي دخل فيها التغريب، كان في الأغلب تغريبا نخبويا تسرب إلى طبقة النخبة المثقفة وأولاد الذوات في العواصم الكبرى أي في هامش المجتمع وأطرافه وبقي العمق المجتمعي والشعبوي الأوسع في خير.

والطبقات التي غرِّبت منهم من اقتصر تغربه على تقليد الغرب في الثياب واللباس مع حفاظه على دينه وهويته ومنهم من قلدهم في كل شيء.

لا وجود لشيء من هذه التفاصيل في هذا الخطاب بل كانت الحياة كلها جاهلية في جاهلية.

ثانيا: خلل (حالمية الطرح وعدم واقعية المضمون وإغفال دائرة المتاح)

كثير ممن طرح هذا الطرح داخل السجون طرحه بشكل خيالي حالم إن لم يكن بإطلاق ففي اللحظة التاريخية التي صدر فيها هذا التصور على الأقل، كإلحاح البعض في منطقة أخرى من العالم على أن الرب في الإسلام ليس هو من توحده وتخضع له وتتوجه له بالشعائر بل هو من يحكم العالم بأسره لا الإسلامي فحسب.

ولا يتحدث هنا عن أن الإسلام قدم أجوبة على أسئلة الفكر والوعي والسياسة والسلطة يجب أن تحكم العقل الإنساني فكلنا يعتقد هذا بل يقصد أن الفرد لا يكون مسلما (أصلا / حقا) حتى يعيد الرب لحكم العالم (بالمعنى السياسي).

وهي قريبة من مقالة حاكمية الله في الأرض، فهذه المقالة لا تتحدث عن السعي لتحقيق حاكمية الله في الأرض في دولة أو قطر بل هذا سيكون مرحلة لتحقيقها على العالم، ولا يكون المسلم مسلما حقا/ أو لا يكون مسلما أصلا إلا بأن يحقق أو يسعى في تحقيق هذا الشرط التعجيزي.

وقريب من ذلك مقالة السعي لتحقيق أستاذية العالم.

وقد استمرت هذه الحالمية الخيالية واستمر انعدام الواقعية عند كثير من الجماعات التي تأثرت بفكرة الحاكمية.

و حتى التحقق النبوي نفسه لم يصل إلى مرحلة حاكمية الله على الأرض هذه، فقد مات النبي صلى الله عليه وسلم والإسلام يعم الجزيرة العربية فقط ويقارع في حدودها الشمالية ولم يحقق حاكمية العالم ولا أستاذيته، ولما أسقط المسلمون الروم والفرس في زمن عمر لم يحكموا العالم أيضا لا بالمعنى المادي العسكري والسياسي ولا بالمعنى المعنوي بمعنى أن المباديء والأفكار الإسلامية حكمت العالم مثلا، بل حكمت حدودها فقط وقدمت نموذجا فكريا منافسا في عالم الأفكار طار خارج حدودها.

والقوى الغربية اليوم لا تمارس حاكمية العالم بقدر ما تمارس البلطجة على العالم باستعراض العضلات.

وعلى المستوى الفكري أيضا لم تحكم الأفكار الشيوعية والماركسية والعلمانية والليبرالية العالم، فالماركسية انتشرت في أماكن قليلة وانحسرت ثم اندثرت، والعلمانية والليبرالية لو أخذناها بمنظور علمي كمنظومة أفكار لها منظورها الشامل وروَّادها وآلياتها ومناهجها فهذا أيضا لم يخرج عن دائرة الدول الكبرى، وإلا لما بقي سائر العالم بين عالم ثان وثالث ورابع في تصنيفهم.

ثالثا: خلل شعار الحاكمية الفضفاض:

أما شعار الحاكمية فيخضعه أهل السنة للتفكيك قبل أن يطلقوا فيه أحكامهم على الصعيد النظري، وقبل تحديد مواضع مسائله بدقة من المعمار العقدي أو الفقهي الإسلامي.

وشعار الحاكمية كما قلنا شعار فضفاض تندرج تحته عشرات المسائل منها ما يدخل في أبواب الألوهية والربوبية والتحليل والتحريم ومنها ما هو ألصق بالبحث الفقهي ومنها ما هو دون ذلك.

هذا من جهة مسائله، أما من جهة النظر في المطلوب من الفرد تحقيقه ليصح أو يتم إسلامه (وهو مرتكز هذا الخطاب على الحقيقة) ففي هذا الطرح الفرد المسلم الموحد المؤمن المصلي المزكي الحاج الصائم التقي الورع المجتنب للكبائر الذي لا يصر على الصغائر سيبقى (كافرًا/ أو غير تام الإسلام) ما لم يسع ويتحرك لإعادة الحاكمية إلى الأرض.

في حين أن هذا الفرد نفسه عند أهل السنة والجماعة يسمى (عدلا) وليس مسلما فحسب، فهذه مناطات العدالة عندهم.

والسبب: أن هذا المبحث لا علاقة له عند أهل السنة بمباحث الإسلام والكفر أو الجاهلية ولا العدالة والفسق حتى، بل هو مبحث ألصق بفقه الدولة ونظم الحكم والسلطة والسياسة الشرعية وطريقة الاحتساب على الظلمة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، و ذلك لأن المناطات الشرعية مناطات شخصية ظاهرة وثابتة كالتوحيد مثلا، بخلاف واجب الفرد تجاه تغيير وضع دولته الديني نحو الأفضل فهذا باب يخضع لعوامل زمانية ومكانية وحالية لا تنضبط ولا ينتظمها عقد واحد.

في بعض الحالات قد يكون السلطان والأمير ظالما غشوما يبطش بالناصح والمحتسب ويتجاوز بطشه إلى أسرته وأهله فما هو وجه كفر/تقصير من رأى ترك الاحتساب لذلك.

في حالات قد يكون سعي الأفراد الطائش في إعادة حكم الله في الأرض سببا لإطفاء ما تبقى من نوره في الأرض.

وفي بعض الأزمنة والأمكنة يكون الأفراد أقليات في دول كافرة أو في حكم الأقليات في دول مسلمة مستبدة.

وإن كان هذا الحال في قطر صغير ودولة محدودة من العالم فكيف باشتراط السعي والتحرك لإعادة حاكمية الله إلى الأرض كلها!!

كيف ننيط إسلام المسلم وعدالته بكلام فضفاض عائم أولا وشعار يترجم بألف وجه ثانيا وطرح خيالي ثالثا.

رابعًا: الخلل في عنصر (الجماعة):

أما الجماعة التي ستحمل على عاتقها مهمة إعادة حكم الله إلى الأرض وستكون هي بمن فيها دار الإسلام ومن لم ينضم لها دار حرب، أو

هي الإسلام وما سواها جاهلية، أو هي الإخوة والأخوات وما سواها ليسوا بإخوة ولا أخوات.

فما هو مناط تقديس هذه الجماعة؟ ما الذي رفعها من درجة البشرية التي تصيب وتخطيء إلى درجة المقدس الذي من حاربها يحارب حاكمية الله في الأرض؟

هب أنني لا أتفق مع الجماعة في تصوراتها عن الإسلام؟! ما ذنبي في أن يحكم عليّ بأحكام دار الحرب؟

هب أنني أتفق معهم في الأفكار ولكن أختلف معهم في منهجية التطبيق ؟ لماذا لا أكون من الإخوة والأخوات؟

هب أنني أتفق معهم في الأفكار ومنهج التطبيق ثم خالطتهم فصدمت بأخلاق تلك الجماعة المسلمة التي ستعيد حكم الله إلى الأرض ؟

هب أن هناك جماعة أخرى رأت أنها الجماعة المسلمة الأحق وهو ما وقع، فمع أيهما ندخل لنكون من الإخوة؟

هب أنها جماعات شتى ترفع نفس الشعار وهو ما وقع فمع من سأكون مسلما ومع من أكون جاهليا؟

أما أدبيات أهل السنة فيما يخص هذا الباب فهم لا يرون إلا جماعة واحدة هي جماعة أهل الإسلام التي مناطها نطق الشهادتين والإتيان بمقتضاهما من التوحيد وتحليل الحلال وتحريم الحرام، ويطلقون عليهم وصفا جميلا عميقا في دلالته وهو وصف (أهل القبلة) وعقيدتهم أن أهل القبلة يحبون على قدر ما فيهم من خير ويبغضون على قدر ما فيهم من شر، وهم معصومون الدم والمال في كل زمان وفي كل مكان.

فلا وجود في الإسلام لجماعة يناط وصف الإسلام بمجرد الدخول فيها **لإعادة حكم الله إلى الأرض** ويناط وصف الكفر وأحكام الردة أو قصور الإسلام بمجرد عدم الانضمام لها.

الإطاحة بأصول أهل السنة والجماعة في الباب:

في مقابل إدخال هذه المقالات في البنية التأسيسية لأفكار هذه الجماعات قامت بحذف أو تأويل أصول أهل السنة في الباب.

فكثيرة هي النصوص الشرعية المتفق على صحتها التي تتحدث عن الطاعة في المعروف مع إنكار المنكر وعدم الطاعة في معصية.

الطاعة في المعروف في مثل هذه النصوص لا يراد بها التطبيل للحاكم الجائر بل معناه الاستمرار في إقامة الشعائر الإسلامية المستمرة في الدولة

ليستمر التواتر العملي والتطبيقي لهذه الشعائر عبر الأجيال والذي به تبقى منارات الإسلام ومعالمه كحضور الجمع والجماعات والأعياد وكل ما يقام في الدولة من شعائر، مع كراهية الحاكم الجائر.

فليس من العقل ولا من الحكمة أن ينتقم المسلم من جور الجائر بالإعانة على إطفاء نور الله (شعائر دينه) في الأرض.

بالإضافة إلى التقيد بالقوانين الإدارية والتنظيمية في الدولة والتي بها تحفظ مصالح الناس وتحفظ مقاصد الشرع، وفي الخروج عن هذه القوانين إضرار بالناس ومصالحهم.

أما عدم الطاعة في معصية فهو داخل في معنى حفظ الشرع ومعالمه وبقائه جيلا بعد جيل.

أما إنكار المنكر الذي تمارسه السلطة فله مراتب، تبدأ عند خلع الإمام وتصل إلى إيثار الاعتزال.

والذي يعيِّن المرتبة المناسبة للوضع السياسي مجموعة عوامل كالمناخ السياسي في الدولة والسقف المتاح للإنكار (المثمر) الذي يؤدي مقصد الإنكار وهو تقليل المفاسد، أو إيقاظ السلطة لمغبة الظلم على أقل حال.

ولهذا فمرتبة الإنكار لا نقدر على قولبتها في قالب واحد لا يتغير بل هي تتغير بتغير العوامل، ولهذا نرى الخلفاء الراشدين يوجهون الناس بخلعهم في حالة انحرافهم (حاشاهم) عن العدل والقسط، وهي الحالة الأصلية لنظم الحكم في الإسلام، ولكنها لم تتكرر بعد ذلك إلا نادرا.

ونرى من الصحابة ثم السلف من كان يعلن الإنكار على الأئمة والأمراء في زمن بني أمية ثم بني العباس.

ومنهم من كانت طريقته في إنكار المنكر هو اعتزال السلاطين وعدم الدخول عليهم وإعانتهم بقبول وظائفهم داخل منظومة الحكم كالقضاء، ليفهم العامة إنكارهم للمنكر والظلم.

ومنهم من كان يسعى بالنصح إلى الأمراء الذين يتوسم فيهم خيرا.

ولا نرى في هذا التنوع خلافا منهجيا أو تأصيليا بينهم بل نرى فيه مراعاة للمناخ السياسي وسقف الإنكار المثمر المتاح في دولةٍ ما في زمان ما.

إلا أن ثمة وسيلة للإنكار داخل الدول المسلمة جاءت النصوص الشرعية بمنعها والتحذير من عواقبها ، وهي المنابزة بالسيف (الصدام المسلح) ، وليس المقصود من المنع من المنابزة بالسيف في الشريعة الإبقاء

على الحاكم الظالم (حاشا الشريعة) بل الحفاظ على كينونة المجتمع المسلم الذي يدفع في الأغلب الأعم ثمن الصدام السياسي على السلطة داخل الدولة المسلمة ، وإلا فلو كان الأمر يقتصر على المتقاتلين لهان.

ترى جماعات التكفير والعنف وأطياف الصدام داخل تيارات الإسلام السياسي في هذه النصوص ضعفا وخورا وجبنًا وتخديرا ..إلخ فتقوم بردها أو تأويلها وتحريفها وتفريغها من مضمونها ، وقامت باستبعادها من قاموسها.

وهذه النصوص لمن وعاها ووعى مضامينها لا تحمل شيئا من ذلك ، بل هي تنبه إلى حقيقة واقعية في نظم الحكم وسياسة الدول وهي أن النظام الحاكم في أي رقعة من الأرض لا يشكله شخص الحاكم أو الأمير أو الرئيس أو الإمام أو الخليفة بل تمثله دولة عميقة ، هذه الدولة العميقة لا تقوم على الهواء بل قاعدتها الحقيقية هي مراكز القوى العسكرية كالجيوش ومراكز القوى المالية والاقتصادية ولولا إخضاعها لمراكز القوى هذه لما تمكنت من السلطة واشتدت وطأتها كما يعبر الفقهاء في هذا السياق ، وهو تعبير مبدع ، فالسلطة عندهم ليست مرتبة شرفية بل السلطة عندهم هي قوة الردع واشتداد الوطأة على الأرض والتمكن من مفاصل القوى ومراكزها ، ثم مراكز القوى بدورها لا

تقوم على الهواء بل عمادها المجتمع بوعيه الجمعي الذي تشكله هذه القوى عبر قنوات مختلفة كالإعلام والمنابر الثقافية والوسائل الحديثة ، أو لا تحتاج إلى تشكيله في حالة ما إذا كان الوعي الجمعي مترد في نفسه.

في مثل هذه الصور يتطلب تغيير مثل هذا الوضع وضعًا موازيا ومكافئًا له، موازيا له في القوة وموازيا له في البنية والتماسك، هكذا يقول قانون الأسباب والمسببات وهكذا تقول النصوص.

ولهذا اشتُرط إذن الإمام والقتال تحت راية الدار/ الدولة في غزو دولة أخرى (جهاد الطلب) ولا يستقيم ولا يتصور أن تنفرد جماعة بنفسها في مثل هذا النوع من القتال والصدام مع دولة أخرى، فضلا عن انفرادها بصدام دولتها هي بمراكز قواها بمجتمعها المسلم الذي يقف إلى جانب رؤى أخرى.

في حالة إذا قررت جماعة مجتمعية الصدام مع هذه الدولة العميقة التي ترفض مغادرة السلطة مستندة إلى شدة وطأتها بالشكل المشروح من مبايعة مراكز القوى وأطياف مجتمعية واسعة، إما أن تكون هذه الجماعة لا تمتلك ظهيرا مسلحا قادرا على الدفاع عنها فهي هنا تضحي بأفرادها وتقدمهم كقرابين، وإما أن تمتلك ظهيرا مسلحا قادرا على الدفاع عنها

فيصطدم الفريقان بين ظهراني مجتمع مسلم ، ويوضع السيف بين أنصار هؤلاء وهؤلاء فهي فتنة تدوم.

هذا في زمن الأسلحة البدائية فكيف بزمن الأسلحة المتطورة.

وهذا في زمن الدولة البدائية فكيف بزمن تحالفات القوى العابرة للقارات والدول وترابط مصالح دولية وإقليمية مع تلك الدولة العميقة المراد زوالها؟!

عناصر خطاب الحاكمية تحضر في الداخل السعودي

كانت الحالة الدينية السعودية في نفس لحظة تشكّل هذه الأفكار في السجون المصرية حالة مستقلة لها خصائصها ولها مفاهيمها ولها مشروعها الخاص ولها فقهها المستقل فيما يخص السياسة ونظم الحكم ووسائل التغيير والمستمد من المعمار العقدي والعلمي للدعوة النجدية المستمد بدوره من أدبيات أهل السنة والجماعة.

وعندما نجح الملك عبد العزيز في توحيد نجد والحجاز قرّب أهل الرأي والفكر من شتى بقاع العالم الإسلامي لاسيما الرافدين الشامي والمصري، وقد كان لهذا التقارب والتلاقح الفكري بين البيئة النجدية العلمية والبيئة المصرية أثرا إيجابيا بالغا على الجانبين وآخر سلبيا، أما

الأثر الإيجابي فهو استفادة البيئة المصرية بقوة من العمق العقدي النجدي المنبثق من السجال العقدي داخل الذات الإسلامية نفسها الذي تميز به النجديون والذي يعود في جذوره إلى منظومة أهل الحديث ومحطة ابن تيمية الأهم في تاريخ العقيدة.

فحضر ابن تيمية وابن عبد الوهاب بقوة في الخطاب الإصلاحي المصري خاصة في خطاب رشيد رضا.

وفي المقابل فقد كانت البيئة المصرية أوسع إطلاعا وأكثر امتلاكا لأدوات السجال بين الذات الإسلامية والآخر ، أعني الوافدات الفكرية الغربية ، فقد كانت لديهم قدرة على عرض الإسلام في مواجهة الفكرة الغربية بأسلوب عقلاني كان في أول أمره مبالغا في عقلانيته بما يخرجه عن حدود النص في نسخة محمد عبده ثم مع هذا التلاقح الفكري صار عقلانيا ذي مرجعية أثرية وانضباط عقدي جيد على يد رشيد رضا وإن كان لم يتخلَّ عن عبده تماما فبقيت في خطابه بعض رواسب أستاذه ، وبدأت البيئة النجدية تستفيد من هذا الخطاب المصري وإن كان ببطء لعدم حاجتها الماسة إليه في ذلك الوقت في بيئتها النجدية التي لم تعرف الاستعمار.

أحد تلامذة رشيد رضا لم يقتنع بفكرة أستاذه المهادنة للسلطات السياسية والقائمة على فكرة التربية الإسلامية والتصحيح العقدي والتطور العصري بعيدا عن الجماعات والكيانات والتكتلات السياسية التي تشكل دولة داخل دولة والمناكفات مع السلطة وكان يرى أن طريق الإصلاح هو عودة الكيان السياسي الجامع للمسلمين (الخلافة) والطريق نحو هذا الكيان الجامع هو إنشاء كيانات خاصة داخل الدول لها مناهجها ورؤاها ومشروعها الخاص.

كان حسن البنا من جملة من استضافه عبد العزيز آل سعود في تلك الحقبة مع من استضافهم من حملة الفكر والثقافة، وكان حسن البنا يصرح في رسائله ومقالاته بأن عبد العزيز من أئمة المسلمين العظام.

تحكي بعض الروايات التي لا أعرف صحة ثبوت ألفاظها أو وقوعها ولكنها تحمل معنى حقيقيا في نظري، أن حسن البنا طلب من عبد العزيز آل سعود أن ينشيء فرعا لجماعة الإخوان المسلمين في السعودية فأجابه عبد العزيز قائلا: كلنا إخوان مسلمون!

وهي حادثة حدثت أو لم تحدث تحمل معنى حقيقيا يعكس رفض البيئة النجدية العلمية لفكرة أجنبية عنها كهذه.

فمنذ زمن العهد بين محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود لا تعرف البيئة النجدية سوى كيان ديني واحد وكيان سياسي واحد والعلاقة بينهما علاقة مرشدة فالسياسة والحكم للكيان السياسي والوعي والإصلاح الديني للكيان الديني، مع ترشيد كل منهما للآخر ، وعند الائتلاف ينطلقون من رؤى موحدة، وعند الاختلاف يتم إدارة الموضوع -بناء على منظومات علمية وعقدية ورؤى خاصة للدعوة النجدية- بما لا يؤدي إلى صدام الديني والسياسي، ولو تنازل الديني قليلا أو العكس.

وهذا بالمناسبة من أبدع ما فعله هذان الرجلان..وقد كنت تكلمت في (مصابيح الظلام) على أن هذين الرجلين مع بساطة البيئة التي خرجا منها إلا أن مشروعهما في آليات إقامة دولة مشروع عميق.

في حقبة منتصف الستينيات في فترة بطش الداخلية المصرية بالإخوان المسلمين وتعذيبهم استضافت السعودية المملكية الإسلامية قيادات الجماعة وآلاف من أتباعها الهاربين من مصر القومية العربية الاشتراكية وفتحت لهم أبوابها ومعاهدها وجامعاتها وطبعت أعمالهم ومكنت لهم في بلادها مع رفض تكوين كيان خاص لها داخل الدولة.

ويبدو أن هذا القرار السعودي كان يحمل بعدا دينيا سياسيا مناوئا للمشروع الناصري القومي الاشتراكي في المنطقة العربية على مستوى الفكرة والمشروع والسيادة وقراءة في شخصية الملك فيصل ومواقفه وشخصية ورسائل ابن باز لرؤساء وحكام العالم العربي والإسلامي تعزز هذا الطرح ، ويبدو أن القرار كان يهدف أيضا للاستفادة من جهود وأطروحات حملة الفكرة الإسلامية وقتها بشرط إعادة تشكيل أفكارها بالتخلي عن فكرة المشروع المستقل والكيان المستقل داخل الدولة وإخضاع مشروعها في هذا الجانب لأصول وأدبيات الدعوة النجدية الذراع العلمي والديني في السعودية والذي يرفض استمدادا من أصوله العقدية فكرة (الجماعة على الوجه المشروح آنفًا) لأنه حسب مرجعياتهم يؤول إلى صدام السياسي والديني ، وصدام آخر بين الديني والديني ، وصدام ثالث بين السياسي والسياسي فيرتكن كل منهم لجماعة دينية داخل مجتمع مسلم وهو ما لا تعرفه البيئة النجدية منذ زمن التأسيس كما شرحناه.

إلا أن الذي حدث كان العكس في قراءتنا !

فإن بعض من هرب من القمع في الخارج أحضر معه إلى السعودية عنصرين من عناصر الخطاب السابق بشكل واضح إلى البيئة السعودية ،

وهما عنصرا (الحركة) والذي لا يكون إلا من خلال (تنظيم وجماعة) مع ضخ فكرة (فقه الواقع) السياسي العالمي والتحديات الكبرى التي تواجه المسلمين، تمهيدا لتشكيل وعي مستقل -ولا إشكال إلى هنا- ولكنه سيمهد بدوره لتبني مشروع (ديني وسياسي) مستقل.

أما عنصر الحاكمية على الوجه المشروح مع عنصر جاهلية المجتمعات المتخلفة عن ركب الحاكمية فقد تأخر قليلا إلى حقبة حرب الخليج الثانية.

فإن كانت البيئة العلمية السعودية استطاعت هضم فكرة الحركة والجماعة وانشغلت بالتحديات السياسية المعاصرة، إلا أن هذه العناصر تبقى عناصر ثانوية من الممكن أن تفسر على أوجه كثيرة، فقد تفسر على أنها حركة علمية ضمن تنظيم دعوي واع بقضايا العصر مثلا، أما عنصرا الحاكمية وجاهلية المجتمعات فقد كان من الصعوبة بمكان أن تهضمهما معدة النجدي العلمية التي لا تعرف المصطلحات الفضفاضة في صلب العقيدة كالحاكمية ولا تعرفها في باب الأحكام والأوصاف كجاهلية المجتمعات.

سيدخل بعض الباحثين السعوديين وهو الأستاذ سفر الحوالي[91] شفاه الله من تلامذة الأستاذ محمد قطب رحمه الله هذه العناصر في البيئة النجدية مع إعادة تشكيل للمصطلحات فسيحضر معه مصطلح (إرجاء المجتمعات) بدلا من مصطلح حاد كـ(جاهلية المجتمعات) وستكون المجتمعات المرجئة هي تلك التي لا تعمل ولا تسعى لإعادة (الحاكمية)، وقد بث هذه الأفكار بصورة مباشرة أحيانا وغير مباشرة أحيانا أخرى في كتبه وأطروحاته، كما حاول إيجاد أية جذور تاريخية في البيئة النجدية لجماعات الحاكمية ليقدمها على أنها تمثل امتدادا للدعوة النجدية، في أجواء واسعة من إعادة التشكيل هذه بين المتأثرين بفكر الحاكمية المشروح في الداخل السعودي، أثيرت فيها مجموعة كبيرة من المسائل العلمية كمسألة التشريع العام وتبديل الشريعة والعذر بالجهل وغيرها من مسائل كانت المؤسسة العلمية الرسمية في السعودية تطرح آراءها فيها من بُعدٍ علميٍّ مجرد، ولكننا لا نرى أن إثارة أبناء هذا الاتجاه لهذه المسائل في تلك الحقبة كان مجردا عن المقاصد والأغراض، بل كانت تهدف إلى تهيئة أجواء مناسبة بين الشباب لعملية حقن البيئة السعودية بعناصر الحاكمية، وخلط الأوراق.

---

[91] تكلمت على أطروحات الأستاذ في بحث خاص.

كما استبعد هذا الاتجاه من منظومته نظريا أو عمليا مباديء أهل السنة المشروحة سابقا المتعلقة بالباب، أو قام بتأويلها وتحريفها.

سيُنتج هذا الحقن والتلقيح والتشكيل جنينًا مشوَّها في نقدنا، لا هو بالابن الشرعي للحالة النجدية التاريخية، ولا هو بالابن الشرعي للرافد المصري، بل هو جنين بلا ملامح ولا هوية.

وهذا المشروع التلقيحي بين مناهج لا تمت لبعضها بصلة كان من أسوأ ما ارتكبه الأستاذ سفر مع هذا التيار—في نظرنا- لا في حق الحالة الدينية السعودية فحسب بل في حق جماعات الإسلام السياسي أيضا.

فقد تسرب هذا الجنين المشوه إلى الحالة المصرية وحضر فيها بقوة، وبعد سنوات من محاولة إقناع هذا التيار نفسه والآخرين بأن هذا التلاقح (بين الرافد النجدي وروافد الحاكمية المصرية الكثيرة) تلاقح بين متماثلين وأن الجميع يحمل نفس الفكرة والأصول والهدف، حضرت أحداث يناير في مصر، فإذ بكل تيار يقدم مشروعا مستقلا ومرشحا مغايرا ومنهجا مختلفا، وإذ بكل تيار يرى في التيار الآخر منافسا على قواعده وجماهيره وخطابه، وإذ بكل تيار يرى الآخر عبئا على كاهله ومشروعه، وإذ بكل تيار يختلف مع الآخر في الرؤية والأهداف، وإذ

بشتات جماعات الحاكمية هذا يكون من أكبر أسباب إحباط مشاريعهم جميعا والتي تسعى كلها لتطبيق شريعة المفترض أنها واحدة!

فلا أن الحالة المصرية أبقت على جماعة واحدة تتبنى المشروع وتنضوي تحته سائر المشاريع، بل ظهرت مشاريع متصادمة متنافرة، ومن أهم أسباب تصادمها وتنافرها إشكالية التلاقح الشاذ المذكور.

ولا أن الحالة السعودية تُركت كما كانت.

وهذا الشتات يعود أيضا إلى معضلة الحاكمية، فالجماعات الإسلامية الممارسة للسياسة في مصر، منها من يحمل عناصر الحاكمية المشروحة في منظومته فيرى نفسه وجماعته الممثل الأوحد أو الأحق لمشروع تطبيق الشريعة، وبالتالي رفضوا الانضواء مع بعضهم في مشروع موحَّد، ومن الجماعات التي مارست العمل السياسي في هذه الفترة جماعات بعيدة عن منظومة الحاكمية وعناصرها وبالتالي رأت أفضلية الانضواء تحت مشروع آخر غير مشاريع هؤلاء، كمرشح أو حزب توافقي لا ينتسب إلى هذه الجماعات ويكون مقربا من الجميع، واستمر الخلاف بين الجميع للنهاية.

ومعضلة الحاكمية هذه إن لم تحلها الجماعات التي اختارت هذا الطريق ستبقى في شتات لا ينتهي.

في نفس تلك الحقبة التي كان هذا التيار يعيد فيها تشكيل النسق العقدي النجدي تمهيدا لمزجه وحقنه بمضمون رافد (الحاكمية) المصري وينشيء كيانا مستقلا داخل السعودية ، هناك في أفغانستان كان منظرو جماعات الجهاد يعيدون تشكيل نفس النسق العقدي النجدي وتاريخ الدعوة والدولة في نجد تمهيدا لمزجه بالمقالات التأسيسية لجماعات الجهاد وادعاء جذور لفكرتهم في داخل البيئة النجدية والذي سيظهر بعد ذلك بشدة في خطاب تنظيم الدولة.

بالغ بعض أبناء هذه الاتجاهات في دفعهم الشباب نحو الصدام مع دولهم أو ما يؤدي إلى ذلك وتأويلهم وتحريفهم لأصول أهل السنة كما شرحنا.

ومن أكبر مساويء إفرازات هذا التيار أنه أدى إلى نشأة تيار في الجهة المقابلة اشتط هو الآخر في ردة فعله.

ففي مقابل هذا الاتجاه سينشأ اتجاه بالغ في ردة فعله وتهوره ، تبنى هذا الاتجاه رؤية مختلة ومبالغا فيها لمسألة طاعة ولاة الأمور فأضفى قداسة

على مصطلح ولي الأمر الذي لا يحمل في جذوره العلمية سوى توصيف مَن آلت إليه أمور الحكم في رقعة ما فتوطدت واشتدت وطأته فيه عسكريا وسياسيا واقتصاديا..ثم قد يكون عادلا وقد يكون جائرا وقد يكون عدلا وقد يكون فاسقا، ولهذا كان السلف يسمون كثيرا منهم ولاة الجور أو أئمة الجور فيثبتون لهم وصف الولاية وأحكام الصبر والطاعة بالمعروف مع إلصاق وصف الظلم بهم.

كما قام هذا الاتجاه بإضفاء قداسة على (سياسات) بعض الدول في مقابل شيطنة الاتجاه السابق لكل سياسيات الدول، في حين أنه من بدهيات العقول أن سياسات أية دولة تشتمل على الإيجابيات والسلبيات والمصالح والمفاسد ومن البديهي أنهما يتراوحان فتثقل هذه الكفة تارة وتثقل تلك أخرى.

ثم انطلق الخطاب من البيئة المحلية للبيئة الإسلامية كلها فأضفوا هالات القداسة على سائر السلطات السياسية ثم تطور الأمر إلى تبنى كثير منهم خطابا دفاعيا ودعائيا مطلقا لأنظمة جائرة مغرقة في جورها، مع رفض أي نقد علمي لنظم الحكم الغربي المصدرة للدول العربية فيندر جدا أن تجد في هذه التيارات من يقوم بنقد الفكرة العلمانية الغربية بل

نقدها علامة على الحزبية، ثم أخرجوا كل من يخالف طريقتهم من دائرة السلفية بتهمة الحزبية.

وبين التهورين السابقين تقبع الفكرة السنية في تقييم نظم الحكم المستقلة عن هؤلاء وهؤلاء والتي تنظر للدول بشكل نسبي وتركيبي فلا أن كله طاغوت وجاهلية كما عند الطائفة الأولى ولا أن كله خلافة راشدة عمرية كما عند الآخرين، بل كل دولة بحسبها ، فكان لهم رأي في دولة الخلافة الراشدة وهي ألصق التحققات بالدولة النبوية، ورأي مركب في الدولة الأموية التي جمعت بين خير عظيم وبين بعض المفاسد، ورأي معاكس تماما في الدولة الفاطمية العبيدية التي لا يرونها من جهة الحكم مسلمة ومثلها دولة القرامطة ودول بدعية كالصفويين وهكذا.

ثم في آليات التغيير لهم رؤية تركيبية كما شرحناه.

أما النظم الكافرة كما في الدولة العبيدية فوسائل تغيير وضعها لهم أيضا فيه فقه خاص ، فالدولة الفاطمية كانت عندهم دولة كافرة من جهة نظم الحكم فيها لا من جهة مجتمعها المسلم ، وهذا يعين أن يكون التغيير من داخل نظام الحكم نفسه لا من أوساط المجتمع لتجنيب المجتمع

الفتنة، واستطاع صلاح الدين ومن معه التوغل في مفاصل الدولة وإسقاطها من داخلها ونشر عقيدة السنة وشكر له أهل العلم صنيعه.

والشاهد أن علماء الإسلام وأهل السنة قدموا منظومة متكاملة في السياسة ونظم الحكم وآليات التغيير بقيت موضع إهمال واستهزاء أحيانا من هذه الجماعات.

قامت هاتان الجماعتان المتقابلتان بإضاعة أوقات وأعمار وجهود وحياة كثير من الشباب بل أظنها اختطفت ثم ضيعت الجهود العلمية والدعوية التي استمرت لعقود في الساحة.

أرادت الجماعة الثانية في أول الأمر أن تعالج مشكلة إنشاء الفريق الأول لجماعة مستقلة داخل الدولة ولو فكريا، فإذ بها تقيم جماعة مقابلة وتحيطها بأسوار عالية، ثم اختلفوا فيما بينهم داخل أسوارهم فبدع بعضهم بعضا، وصاروا إلى حالة شبيهة بملوك الطوائف.

وقد تطور أمر هذه الجماعات المتقابلة وأخذ منحنى خطيرا – **وهذا بالأساس ما جعلني أستحضر تجربتهم في قصة الدم هنا** – وهو اقتحامهم لصراعات السلطة الدموية، هؤلاء يقاتلون في سبيل الجماعة المقدسة التي تسعى لحاكمية الله في الأرض وهؤلاء يقاتلون في سبيل

ولي أمرهم المقدس، وسالت الدماء بينهم في ليبيا ، كما اصطدموا في اليمن مرارا في بعض الجبهات وسالت الدماء بينهم لولا أن أهل العقل كانوا يتدخلون كل مرة لمنع الانفجار.

وعندما وصل الرئيس المصري السابق المنتسب لجماعة الإخوان إلى كرسي الحكم وجه الفريق الثاني خطابه وجهوده بشكل مباشر وغير مباشر لإسقاطه وكانوا عونا على الدماء التي أسيلت في رابعة من الفريق الأول.

والفريقان أيضا هما من ينفخ أبواق الفتنة في أكثر من بلد اليوم.

وهذه هي قصة ما تسمعه من منتسبي الفريق الأول أينما لقيتهم اليوم من أن البلد الفلاني يجب إسقاطه لأنه يحارب الإسلام والمسلمين، والحق أنه يأخذ موقفا سلبيا من (الجماعة) أو (التيار) أو (الاتجاه) الفلاني، ولكن كما شرحناه لما كانت هذه الجماعات ترى أنها الجماعة المقدسة ، كان حربها أو الخلاف معها حربًا على الإسلام والمسلمين.

وهذه قصة الاتجاهات الصدامية داخل الجماعات الإسلامية التي تدفع في اتجاه الصدام و لا يهمها عواقب الصدام بين ظهراني مجتمع مسلم مادام أنه لا يحكم بالشريعة حسب تصورهم.

وهذه قصة تسلل أفكار جماعات التكفير والعنف إلى البيئات العلمية التي كانت بمنأى عن ذلك كله إلى حقبة هذا التلاقح وإعادة التشكيل □ومد الجسور التي شرحناها بين كل ما يسمى بأبناء المشروع الإسلامي.

□وهذه قصة كل شي.

وقد يكون هذا التيار أيضا من أسباب توجه الدولة السعودية لما يسمى بسياسة الانفتاح، تهدف من وراء هذا إلى إعادة أبناء التيارات الدينية إلى مساجدها ودعوتها، وسياسة (الترفيه) هذه سياسة قديمة اشتهر بها الرومان بمسارحهم التي شغلت المجتمع عن السياسة، ومهما يكن السبب وراء هذا التوجه ووراء إتاحة بعض المنابر الإعلامية لليبرالية المتطرفة فهو توجه يضر ولا ينفع ويزيد الاحتقان، وقد سلكت كثير من الدول الإسلامية هذا الطريق قبل قرن من الزمان فلا أنها أفلحت في دين ولا أنها أفلحت في دنيا.

بخلاف سياسة تجديد الخطاب الدعوي والديني النجدي بتجديد روحه مع الحفاظ على القطعيات الشرعية ومعاقد الإجماع والهيكل العام للدعوة النجدية وإتاحة المنابر للنقد البناء لبعض المضامين القريبة

المحتملة – كما يعبر الفقهاء – مع عدم المساس بالأصول فأظن أنه توجه نافع.

النخب العلمية

النخب العلمية والدعوية الإسلامية بشتى صورها وتحققاتها وانتماءاتها التي حملت على عاتقها مسؤولية خوض معركة الوعي في العصر الحديث، بالدفاع عن أصول الدين وقواطعه ومعاقد إجماع الأمة فيه (المعلوم من الدين بالضرورة) وقامت بنشر علوم الأسلاف التي تعمق صلتنا وتجذرها بتاريخنا مع تجديد روحه، وأذاعت علوم القرآن والسنة ونصح الناس، قامت بجهود علمية وتربوية ضخمة في هذا الصدد، يكمل بعضها بعضاً وكانت بفضل الله صمام أمان لأمتنا.

والملاحظ أنها قامت بهذه الجهود تحت وطأة الظروف الدولية والسياسية الكبرى المشروحة آنفا وفي ظل تربص الأعداء بها وهي تواجه كل هذه المعوقات من الداخل ومن الخارج بلا ناصر أو معين، عندما نأخذ هذه الظروف المحيطة في الاعتبار نستطيع أن نقيم هذه الجهود تقييما عادلا فنحفظ هذه الجهود الضخمة وندعو لأهلها ثم

نراجع ونضيف ونهذب ما شئنا بعد الحفاظ على رأس المال الذي بأيدينا وهو كبير بفضل الله.

الجانب الذي يهمنا في موضوعنا هنا هو أن هذه الأحداث المحيطة ألقت بظلالها على هذه النخب العلمية فأثَّرت على سير عملها على الأرض، تخطفت الجماعات المتصارعة في السلطة والمعارضة بعض أبناء هذه النخب فأحرق هذا نفسه مع جماعات الصدام وضيع الآخر حياته في الدفاع عن أنظمة جائرة.

والموفق من سعى في دائرة تأثيره بالإصلاح ورفع الظلم والدعاء إلى لم الشمل ونزع فتيل الصدام داخل ديارنا المسلمة تحت أي مسمى وتحت أي شعار، وترك عنه هؤلاء وهؤلاء.

وعلى الجانب التنظيري نلاحظ أن كثيرا من أبواب الفقه الإسلامي تساهم إسهاما مباشرا في بناء وعي المسلم بمثل هذه الأحداث الكبرى التي تدور من حولنا على المستويين المحلي والعالمي وتعينه على لملمة شتات فكره واستجلاء موقفه، وللأسف ما زال هناك قصور في تناول هذه الأبواب و لم يعد من الممكن التساهل في فهمها ودراستها وبحثها وإثرائهاوضبطها.

أبواب كأبواب الجهاد، القتال، جهاد الدفع، جهاد الطلب، الولاء والبراء، دار الإسلام، دار الكفر، دار الأمان، دار الصلح، دار الذمة، دار العهد، دار العصمة، أصالة السلم أم الحرب بين أمم الأرض، مسائل الأوصاف والأحكام المتعلقة بالباب..إلخ

كل هذه الأبواب وكثيرة مثلها تعاني من تجاذب طرفين داخل النخب المذكورة نرى فيهما خللا واضحا.

طرف يحاول عبثًا أن يلغيها إلغاء تامّا من تراثنا وتاريخنا بتفريغها من مضمونها أو حصرها في تاريخ مضى وانقضى في محاولة قد تكون مخلصة من جهة أنهم أرادوا علاج ظاهرة القتال الباطل باسم الإسلام، ولكنها محاولة غير موفقة ، وهذا علاج لخطأ بخطأ أعظم، فلا يمكن لأمة أن تبقى دون أن تدفع عن نفسها وتحمي بيضتها ، والتاريخ أمامك يشهد لذلك.

قد رأينا صراع الأمم والحضارات عبر التاريخ، لا يهدأ ولا يتوقف، وستبقى الدول الكبرى ومعسكرات القوى العالمية هذه في صراع دائم مع كل مارد يستيقظ من حولها، ومع كل تجربة تحاول أن تضع بصمة على صفحات النجاح الحضاري.

ومن فهم هذه الحقيقة التاريخية وأصناف الأمم عبر العصور واستوعب سنة كونية مستمرة وهي تلك التي عبر عنها هنتنجتون بصراع الحضارات، فهم لماذا لما جاء الإسلام لم يتبنّ حالة واحدة في التعامل مع جميع الأمم الأخرى بل أعلن حالة السلم والصلح مع الأمم المسالمة تلك كصيغة للتعايش السلمي العالمي تحت مسمى الصلح، إلقاء السلم، الأمان، الذمة..إلخ ، وأعلن حالة جهاد الدفع لمعسكرات القوى المعادية التي تعتدي على ديار المسلمين وتنزل بساحاتهم ، ثم أعلن جهاد الطلب على معسكرات القوى التي تحشد لضرب كل تجربة لا تقبل لنفسها أن تكون رهن إشارتهم أو أن تدور في فلك مصالحهم، فيستبق المسلمون الضربة الأولى قبل نزول العدو بساحاتهم.

وفي مقابل هذا الاتجاه الجافي نجد اتجاها آخر في الأوساط العلمية لديه نظرة مختلة في جهة الغلو، يطرح القتال كحل أوحد وأصلي مع كل أمم الأرض! وهو اتجاه لديه خلل كبير في فهم أدبيات الجهاد في الإسلام فيظن أن مقتضاها غزو أمم الأرض جميعها لإعلاء كلمة الله وهذا تصور حالم خيالي غير واقعي أيضا.

بل قسم الإسلام أمم الأرض إلى:

أ: أمم مسالمة متعايشة لا تعتدي على الغير وتكفل الحرية العقدية والأمان لأبنائها فهذه يلقي إليهم المسلمون السلم بل وقد تقدم لهم الحضارة الإسلامية تجارب نافعة على المستويين الحضاري والإنساني، كما كان من شأن المسلمين في بعض الحقب التاريخية في عصر ازدهار الحضارة الإسلامية.

ب: وأمم مقاتلة (مراكز قوى= كالروم والفرس في صدر الإسلام) فهذه إن نزلت بساحة المسلمين جاهدوها جهاد دفع، وإن كانت تعد العدة وتحشد للغزو – وهو ما يحدث دائما - استبقهم المسلمون عند القدرة (جهاد الطلب).

ولن يخلو التاريخ يوما من أمة تسالمك وأمة تغزوك وأمة تحشد لغزوك، كن من ذلك على ثقة، والتاريخ أمامك يشهد!

هذه القطاعات العلمية الأخيرة قد لا تكون تتبنى إجراء عمليا مختلا على الأرض يقضي بسفك دم حرام، ولكن خلل أطروحاتهم وانعدام ضبطهم لأبواب الفقه المذكورة قد تغذي وتوجه الشباب إلى حيث لا ينبغي أن يكونوا وهو ما حدث حقًّا.

ولكن قناعتي أن هذا الرافد نحو العنف – أعني خلل التنظير في بعض الأطروحات في الأوساط العلمية المنضبطة- من أضعف وأقل الروافد تأثيرا في سيرورة الأحداث من حولنا ودمويتها.

قناعتي أن الأحداث المحيطة هي التي تملي في كثير من الأحيان على الدارس والباحث والمتفقه والمتعلم آلية الفهم وتضع أمامه النتائج قبل حتى أن يدرس.

يرى كثير من الطلبة ما يجري من حوله ثم يقرأ متنا فقهيا يتحدث عن جهاد وقتال ثم يضع هو الشرح والحاشية بما تمليه عليه الأوضاع المأساوية التي تمر بها أمته.

سيصنع هذا بكل شيء ، بالقرآن ، بالسنة ، بتراث العلماء ، بكل شيء.

قناعتي أن الغرب الدموي وذراعه العلماني المتطرف إن رفع أيديه عنا وعن أمتنا فإن هذه القراءات المنحرفة ستخفت تدريجيا وتعود إلى حيزها العلمي المنضبط.

قناعتي أن النخب السلطوية في العالم الإسلامي إن حققت قدرا من العدل والأمن والاستقرار والنجاح وتكفلت بحفظ أصول الدين وقواطعه في بلدانها فإن انحراف هذه القراءات سيزول تلقائيا.

الرافد الثالث

ضعف الوعي المجتمعي

في نهاية المطاف قد يظن القاريء الكريم أننا نلعب دور الضحية هنا ونشير بأصابعنا إلى الآخر، إلى الغرب الدموي، إلى نظرية المؤامرة، إلى جور السلطة، إلى عنف الآخر، إلى الصراعات السلطوية الدموية، لتبرأ ساحتنا نحن أبناء المجتمعات المسلمة من كل هذا الذي يجري من حولنا.

لكن الأمر ليس كذلك..

كانت الحضارات القديمة تعتقد أن العالم ينقسم إلى قسمين: العالم العلوي، وهو عالم الآلهة، والعالم السفلي وهو عالم البشر.

وكانوا يعتقدون أن ما يجري أمامهم في العالم السفلي يجري مثله تماما في العالم العلوي، فإن كان الناس يعيشون في أمان فالآلهة متفقة غير مختلفة، وإن كان العالم السفلي يعيش في حروب فلا بد أن الآلهة تتقاتل في العالم العلوي في الوقت ذاته.

حسنا .. لا نعتقد نحن المسلمين في العالم العلوي إلا بإله واحد وملائكة معصومين، ولكن عالمنا السفلي هذا نستطيع أن نقسمه على غرار هذه القسمة إلى قسمين : عالم بشري علوي (القوى الدولية والسلطة والنخب) وعالم بشري سفلي (المواطن المطحون !)

قناعتي أن العالم البشري العلوي هذا (القوى الكبرى السلطة النخب) هو مرآتنا التي نرى بها أنفسنا في عالمنا السفلي، وما هو إلا انعكاس لنا ولأفعالنا وما يدور في صدورنا.

الهنود يعتقدون بال(كارما)، الكارما عندهم تقضي بأن كل ما تواجهه في هذه الحياة من ابتلاء فقد ارتكبته (روحك) يوما ما في حق غيرك ، قد يكون حدث هذا قبل مئة سنة مائتين ألف سنة .. ارتكبته روحك في حق غيرك، ثم بقيت تتنقل من جسد إلى جسد إلى أن عادت إليك، فتذوق ما صنعته بغيرك.

لا نعتقد نحن المسلمين بكارما الهنود هذه، إلا أن ثمة كارما من نوع آخر، تحدث عنها العالم المسلم الكبير ابن تيمية رحمه الله وهو يرصد تدهور الحالة الصحية لنظم الحكم في الإسلام (الخلافة) والتي تدهورت من خلافة وشورى إلى مُلك ورحمة، ثم تدهورت حالة

الملك الصحية إلى مُلك وتجبر، ثم تدهور ذلك إلى فرقة ودماء وبلاء في الدين والدنيا، التحليل التيمي لهذا في فهمي أن الخلافة انحلت وحل محلها الملك ثم بقي الحكم في تدهور مستمر لأن المسلمين أنفسهم كانوا هم من تخلى عن مبدأ التشاور فيما بينهم، وعلت بينهم لغة الفرقة والدم، فسُلّط عليهم الملك يلم شملهم راضين وكارهين، مع رحمة الجماعة والعدل وإعلاء كلمة الله، فلم يتقبل المسلمون ذلك أيضا وعلت بينهم لغة الفرقة والدم مرة أخرى، فسلط عليهم ملك جبري ظالم.

كارما هي من نوع آخر كما قلنا، ما يرتكبه العالم البشري العلوي في حقنا ارتكبناه نحن في عالمنا السفلي يوما في حق بعضنا.

تدهور الوضع المجتمعي والثقافي والسياسي والديني في التاريخ الإسلامي إلى أن بلغ مبلغا مروعا في أواخره فسُلّط علينا الغرب وراح ينهش حضارتنا كما تنهش سمكة القرش فرائسها.. ودخلنا في حمامات الدم هذه..

قد رأينا في نماذج كثيرة في السنوات الأخيرة كيف أتيحت الفرصة لكثير من الشعوب والمجتمعات أن تعيش في وضع أفضل ولو نسبيا مما كانت

عليه لو أنها أدارت المرحلة بوعي وحكمة، ولكنهم كانوا بجميع مكوناتهم كالهمج الرعاع يبغي بعضهم على بعض فسُلِّط عليهم من يبغي عليهم جميعا..

القيادات الجيدة لا تستطيع أن تقدم تجربة ناجحة إلا في أوساط مجتمعية واعية أخذت قرار التغيير للأحسن ولديها المؤهلات العملية التطبيقية لاستيعاب مرحلة التغيير ودفع العجلة إلى الأمام.

نحن هنا – إذن- نشير للآخرين بإصبع واحد.. والبقية موجهة لنا..

❁ ❁ ❁

وماذا بعدُ

ترى ما الذي يخفيه الزمان لنا!

ضربت مثالاً واضحا على أثر الدين الإلهي في حقن الدماء والدفع في اتجاه السلم الاجتماعي والأمن الأممي، من خلال المقارنة بين ما أسيل من الدماء في تاريخ الإسلام كله - مع الاعتراف بما في التاريخ الإسلامي من صفحات سوداء بطبيعة الحال - بلحظة غربية واحدة فقط لم تستمر سوى سنوات معدودة (الحربين العالميتين).

وأحاول أن أجيب هنا عن سؤال : هل معنى هذا أنك تعكس القاعدة على أصحابها فتقول أن وجود الدين الإلهي هو السبيل الوحيد لحقن الدماء في مكان ما؟

هل نقول هنا بلزومية حضور الدين الإلهي في أمة من الأمم لتعيش في أمن وسلام؟

سأستعير هنا عمامة ابن خلدون رائد علم الاجتماع والتمدن والعمران، وأحاول الاستفادة من نظريته في اختلاف طبائع الأمم التي يشبهها باختلاف طبائع الأفراد ، لأجيب عن مثل هذا التساؤل:

يبدو لي أن أمم العالم تختلف..

فمنها أمم تكون غريزة التناحر والتقاتل جزءا من طبيعتها، متجذرة في كينونتها، وهذه الأمم لا يهذبها ولا يروض وحشي أخلاقها سوى الوازع الديني الإلهي، ينزل عليها كالقطر فتنقاد له طائعة ، تغسل أيديها من دماء الأمس وتحلق بيديها نحو السماء.

والعرب تصلح أن تكون مثالا على هذا الصنف، فالعرب لا تخضع لبعضها، فلا تنتظمهم جماعة ولا ينقادون لإمام، بل يتقاتلون أبدا، ومثل هذه الأمم لا تخضع إلا لرب السماء ولا يهذب دمويتها سوى التوجه نحو القبلة، ولا يكسر كبرياءها سوى السجود لله الواحد القهار.

وهذا ملاحظ بالتأمل في حال العرب قبل البعثة وحالهم بعدها، والمقارنة بين شأنهم قبل الرسالة وبعدها، فلم يلم شملهم ولم يجمعهم إلا الدين الإلهي.

ووُجهَت فطرهم القاضية بعدم الخضوع لغيرهم من البشر توجيها إيجابيا حيث رفضوا الخضوع لأمم الشرق والغرب وأسقطوا فارس والروم وأخضعوهم وكانت هذه الأمم من قبل لقرون طويلة.. لا تسقط ولا تخضع!

ثم مع انفتاح خزائن الدنيا على العرب استيقظت نعراتهم وعصبياتهم من جديد، وعادوا إلى ما كانوا فيه من دماء، وانفرط عقد الإسلام من بينهم شيئا فشيئا، فعاوا إلى ما كانوا فيه، فدمروا ما كانوا قد شيدوه، وأهلكوا ما زرعوه.

وبعض الأمم الغربية تصلح مثالا لهذا أيضا، فقد كانت أمما همجية دموية فجاءت رسالة المسيح لتهذب أخلاقهم كما وصف الله تعالى أتباعه حقا (وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة).

ومن الأمم أممٌ على العكس من ذلك، أودع الله في طبائعهم اللين، ولُقِّحت فطرهم بكل خلق سهْل، ولعل بعض شعوب جنوب شرق آسيا تصلح مثالا على ذلك، ومثل هذه الشعوب إذا تزينت بتاج الدين الإلهي ازدات جمالا وأبهة، كالأمة الأندونيسية مثلا، وإن لم تتزين به فهي باقية على لينها ومسالمتها.

ومن الأمم أمم همجية ولكنها تنقاد لمكابح العقل السليم، فتهذبها المدارك العقلية الفطرية وتوقظها التجربة الواقعية، فتسعى لتجاوز محن الأمس الدموي، وتحاول صياغة واقع سلمي جديد.

ولعل بعض الدول الغربية التي سعت للوقوف على الحياد من الحروب الدموية إبان النتائج الكارثية للحربين العالميتين وتلك التي تخلت عن جيشها أو أوقفت استخدامه على حالة الاعتداء فقط، تصلح مثالا على ذلك.

ومن الأمم أمم كأن الموج يتقاذف نزعاتها فيرتفع بالنزعة الحيوانية فيها ارتفاعا شديدا حتى يسبح العالم بسببها في بحر من الدم، ثم يهوي بها الموج فكأنها لم تدرِ يوما ما الدم! ولعل أحفاد المغول مثال على ذلك، فالشعب المنغولي وشعوب وسط آسيا من أكثر شعوب العالم مسالمة اليوم، وإذا خالطتهم تعجبت وتساءلت: كيف يكون هؤلاء من نسل جنكيز خان، وأحفاد أكثر الإمبراطوريات دموية في التاريخ!

ومن الأمم أمم لا تستكن ولا تهدأ ولا ينام حيوان الدم الذي بداخلها إلا أن تقهرها أمةٌ أخرى، والقوى الكبرى في كل زمان مثال واضح على هذا الصنف، كالروم قديما، وإنجلترا وفرنسا وأمريكا حديثا، والمعسكر الشرقي الروسي، والأمة الفارسية أيضا، فهذه أمم لا يكسر كبرياءها إلا السيف ولا يخضعها إلا صهيل الخيل، ولا تنحنى إلا تحت ظلال الرماح، تلك رقيتها الأبدية الوحيدة.

بان إذن أن بعض الأمم قد تصل بفطرها وطبائعها وعقولها وتجاربها إلى صيغة جيدة للتعايش السلمي على صعيد نسيجها الداخلي وعلى الصعيد العالمي مع الأمم الأخرى.

إلا أننا نرى أن هذه النتيجة سيبقى النقص يعتور جوانبها إذا لم تلجأ للاستفادة من الحلول الدينية الإلهية لمعضلة الدم وأسئلة القتل الوجودية.

فبعض التجارب السلمية بالغت في سلميتها حتى اعتزلت الحياة وزهرتها وتركت واجب إعمار الدنيا والمشي في مناكبها كراهية للدماء والنزاع كالتجربة البوذية النابعة من العقائد الهندية، والتي أرادت أن تضع حدًّا لرحلة الدم، فاعتزلت الحياة، وليس هذا بالحل الأمثل، والحل الإسلامي لهذه المعضلة هو النزول إلى ساحات الدنيا وكفّ أيدي القتلة عنها وإعمار الدنيا لحصاد الآخرة.

وبعض التجارب السلمية بالغت في سلبيتها حتى وصلت إلى حد دعوة المقتول إلى حب قاتله ودعوة المظلوم للفرح بظالمه، كالرؤية الغاندية التي تدعو إلى حب القاتل الإنجليزي لأنه إنسان مثلك! وهذه سلبية ومشاركة للقاتل في قتله، والحل الإسلامي القصاص والدفع.

ودول الحياد الأوروبية مثلا قدمت أنموذجًا جيدا مقارنة بالقوى الدموية الكبرى ولكن يبقى حيادها موضع استفهام؟ لأن العالم عندما ينقسم إلى قاتل ومقتول فحيادك سكوت عن القاتل، والحل الإسلامي هنا هو جهاد الطلب لتقليم أظفار القوى الكبرى وقطع أنيابها ورفع ظلمها عن العالم ثم يختار من شاء من الاعتقاد ما يشاء.

فمثل هذه المعضلات المتعلقة بسؤال الدم وغيرها كثير من الصعب أن يوجد لها جواب إلا في الدين الإلهي.

ومن جانب آخر فإن العقول والفطر والطبائع قد تحرز قدرا كبيرا من نتائج السلم والأمن الدنيوي، ولكن هيهات تكفي لتحقيق الأمن الحقيقي أمن الآخرة..

فالميزان في الآخرة مختلف.. في الآخرة: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهدتون﴾.

❁ ❁ ❁

هل سيكون المستقبل في الغرب آمنًا وتطوى صفحات الدماء؟

من خلال ما قدمناه من الحديث عن الأمم التي تبقى دموية بطبيعتها عبر التاريخ، وهي مراكز القوى في كل زمان ومكان، نستطيع استظهار الجواب على مثل هذا التساؤل.

عامة المتخصصين في التاريخ والشؤون السياسية يستبعدون مثل هذا الطرح، فالعالم يعيش اليوم فوق بركان نووي ساخن وساكن قابل للانفجار في أي لحظة ، ولم يكن له وجود حتى في أثناء الحرب العالمية الثانية التي أودت بحياة 80 مليون إنسان، فقد أظهرت الولايات المتحدة الأمريكية أولى الرؤوس النووية في ختام الحرب العالمية والتي ألقتها على هيروشيما ثم نجازاكي اليابانية، ليسعى المعسكر الشرقي (الاتحاد السوفيتي = روسيا) بصناعة رؤوس نووية منافسة، وتمتلك كل من بريطانيا وفرنسا والصين وكوريا الشمالية والهند وباكستان والكيان الصهيوني أسلحة نووية، وهذه الأسلحة كفيلة بإبادة قدر كبير من البشرية في حالة قرر الغرب أن يحرق العالم، حيث تقول الدرسات أن العالم الآن يحتوي على 15000 قطعة سلاح نووي، وأن هذا العدد قادر على تدمير مدن العالم جميعها وقتل ثلاثة بلايين شخص= نصف البشرية تقريبًا.

بل ترى الدراسات أنه سيتبقى معنا بعد تدمير الأرض 1500 رأس نووي!

فلو كان الغرب ينشد الأمان للعالم فلم كل هذا إذن!!

وقد كتبت عشرات المقالات الغربية عن تصورات الحرب العالمية الثالثة وترى أكثرها مواجهة عالمية قادمة محتومة بين المارد الصيني مدعوما بروسيا مع الغرب بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية.

وقد بنى الكاتب الأمريكي الشهير هنتنجتون كتابه الأشهر (صراع الحضارات)(the clash of civilizations) على الفكرة ذاتها أعني استمرار الصراع بين الحضارات المختلفة كالروسية والصينية والغربية والإسلامية، وأن البشرية لا تعرف إلا هذه اللغة.

❁❁❁

خاتمة

قبل خمس سنوات تقريبا..في ليلة باردة لا قمر فيها..أو فيها قمر لا يُرى..كنت أجلس في مكتبتي بصنعاء..

في تلك الليلة كانت صنعاء كقبور لا تسكنها إلا أرواحنا..

شق صوت صراخ عال سكون المكان..هرعت إلى النافذة لأرى ما يجري.. فرأيت امرأة تجري خلف سيارة اختطفت ابنها من أمام البيت..

توالت بعدها الصرخات..

وفي تلك الليلة لم يكن في صنعاء سوى صرخات لا يسمعها إلا نحن..

كانت هذه الصرخات هي الصرخات الأولى الممهدة لصرخة مدوية لوطن كبير.

لقد اقتحم الغزاة صنعاء..

تحولت كل قطعة في اليمن إلى جبهة حرب.. كيف لا.. وهو البلد القبلي والشعب المسلح ..

في اليمن بيتك جبهة حرب.. ساحة بيتك جبهة حرب.. البقالة التي بجوارك جبهة حرب! تلقائيا أنت وأفراد عائلتك ستشكلون اللواء الثاني عشر مدفعية..أو الرابع عشر مشاة..في صالة البيت.

وكنت على موعد مع تجربة حياتية جديدة على جبهات الحروب..

على جبهات الحروب تتصادم الرغبات والشهوات والحسرات والمخاوف والآلام وبوادر الكبرياء والذعر والحماس..

على جبهات الحروب لا تلتقط الأذان سوى الصرخات، بين صراخ مستنهض للهمم وتذمر ناقمٍ على سير الأمور..

صوت الرصاص يتعالى.. وتتعالى معه أصواتنا..

صوت طلقات نارية يعقبه هتاف مدوّ ثم هدوء مقلق..

يتطاير الرصاص حولك دون هوادة..

دوي المدافع القذائف يخترق الآذان..ورائحة البارود تملأ الأنف ..

تهتز الأرض لوابل من القذائف فتبدو وكأنها تطلق زمجرة ارتياع..

يتدفق الدم بداخلك بشدة وغزارة في قلبك..

جثث القتلى مبعثرة من حولك .. وأحلامك كذلك ..

بصوت مرتعد متهدج يستغيثك أحدهم..

وآخر بأجفان نصف مغلقة..وعينين ضيقتين غائرتين في محجريهما تنظران إليك.. وهو يتمتم بكلماته الأخيرة..

يكتسح مخيلتك فيض من الذكريات ..

تعجز عن تنسيق أفكارك المضطربة المتسارعة..

يبدو عقلك وكأنه يمشي على عكازين..

أدركت من الوهلة الأولى في هذه الأجواء خطوط الرواية التي تدور في ذهني.. والأسئلة التي تعتمل في نفسي..

رواية القتل.. وقصة الحرب..وسؤال الدماء..

بعد العودة من الحروب..

جراح أجسادنا تذهب .. ولكن الندوب في أرواحنا تبقى..

قد نعود من الحروب بخير إلا أن شيئا ما بداخلنا لا يعود بخير كما كان.. ولا أدري ما هو!

عبثا أحاول أمام المرآة تصنُّعَ ابتسامتي المعهودة .. ولكن جمود عيناي يفضحني..

هل سننسى.. أم ربما النسيان قد نسانا !

لن تعرف طعم الحياة إلا بعد أن ترى الموت يحيطك من كل جانب..

بعد هذه التجربة كنت أرى الحياة في كل شيء..

في مياه الأنهار اللامعة..كمرآة صقيلة.. بهية رائعة..

في آشعة الشمس تنسدل حولي كخصلات شعر ذهبية..

في القمر يطل عليك في هجعة الليل تسامره ويسامرك..

في التلال في الأفق.. جذابة بهيجة كنقش بريشة فنان ماهر..

في الوديان والغابات تائهة وسط الضباب بمحاذاة الأفق البعيد..

ينكشف الضباب فتسفر عن جمالها تارة..ثم تستحي فتسدل الضباب على محيَّاها..

في الجبال شامخات.. ثابتات.. مهيبة .. تأخذ بمجامع القلب..

في البحر يحكي لك موجه قصةَ حياة..

في ابتسامة طفل.. تشع عيناه فرحًا بقدوم من لا يعرفه..

في طفلة تمر بيدها على شعرها تجمع خصلاته الذهبية خلف أذنها..ثم يتحرك رأسها فتتساقط خصلاتها على خديها من جديد..ويتساقط قلبك معه..

في حضن أم.. في صوت أب.. في إعانة أخ على نائبات الطريق..

تركت الوطن..

وما الوطن..

الوطن حيث تسجد آمنًا لله.. على أي بقعة من أرضه الواسعة..

رأيت وطني.. بين جباه ساجدة.. وأعين باكية.. ومآذن تصدح .. وقراءة قرآنية عذبة .. وأمة لا تموت.. وهذا يكفيني وطنا..

كل شيء في كون الله الفسيح يصدح بالحياة..

فقط الإنسان هو من يتحول إلى آلة دمار حيوانية في صورة بشر..

د. شادي النعمان

الفهارس